محمد آيت حنّا

الحديقة الحمراء

6.7.2019

منشورات الجمل

رواية

محمد آيت حنّا

الحديقة الحمراء

رواية

منشورات الجمل

محمد آيت حنّا: **الحديقة الحمراء**، رواية

محمد آيت حنّا. كاتب ومترجم مغربي مهتم بالفلسفة والأدب والجماليات. وُلد سنة ١٩٨١ بالرباط وبها أكمل مساره الدراسي. حصل على شهادة التبريز في الفلسفة. يدرِّس بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالدار البيضاء. من مؤلفاته: **الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دُلوز وغوتاري** (الدار البيضاء ٢٠١٠)؛ **عندما يطير الفلاسفة**، قصص (الدار البيضاء ٢٠٠٧). صدر له عن منشورات الجمل ترجمة كتاب كاظم جهاد: **حصّة الغريب، شعرية الترجمة وترجمة الشعر عند العرب** (٢٠١١) وترجمة رواية **الغريب** لألبير كامو (٢٠١٣).

محمد آيت حنّا: **الحديقة الحمراء**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٩
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2019
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag1@gmail.com

إلى جيزيل،
للقصائد المسروقة. . .

«عند مدخل الحديقة كانت تنتصب شُجيرة وردٍ كبيرة. أزهارُها كانت بيضاء، لكن كان هنالك ثلاثةُ بستانيّين يصبغونها بالأحمر. وجدَت أَلِيس الأمرَ غريباً، واقتربت لترى عن كثب...».

-لويس كارول-

«لأنّ حياةَ كلّ إنسانٍ، مثلها مثل كوميديا دانتي، رحلةٌ ما بين الجحيم والمَطْهر والفردوس، وما الاختلاف سوى في ترتيب محطّات الرّحلة. . .»

-الرّاوي-

عودة يونيتي:

فيروح يرتعش لمجرّد رؤية الظلّ

الجحيم/ الأنشودة ١٧

عندما خرج الطّفل، الذي سنمنحُه هنا مجازاً اسم م -أ، على عادته، من المدرسة وركض مسرعاً إلى بيته، رغم الحصاة التي كانت قد استقرت بين إصبعه ونعل البلاستيك الأزرق الذي كان يرتديه، لم تكن ثمّة سبيل لتوقيفه، كان هدفُه محدّداً، ينبغي أن يتغلّب على كلّ الصّعاب، ليبلغ المنزل قبل أن تبدأ الرّسوم المتحرّكة الخاصة بالفترة الصباحية. كانوا يعرضون آنذاك رسوماً متحرّكة تسمّى «حكايات من التراث العالمي». كان الطفل ما يزال يتلمّظ بحلاوة الحلقة الماضية، وكانت الحلقة الماضية حكايةً من التراث الألماني عن فلاّح يملك خاتماً سحرياً سيحقّق له أمنية واحدة... لكن كلّما همّ باستخدام الخاتم فكّر قليلاً، وقال: هذا الأمر بسيط أستطيع تحقيقه بقليل من الاجتهاد، لمَ التضحية إذن بأمنية الخاتم؟ الخاتم كان مزيّفاً، لكن صاحبنا لم يكن يدري بزيفه، فاستمرّ في الاجتهاد وتأجيل أمر أمنية الخاتم، حتّى توفي وتوارث أبناؤه الخاتمَ علامةً على اجتهاد أبيهم وجِدّه في العمل... أمّا حكاية اليوم، فلن يكشف عنها غير هذا الركض

المحموم الذي ما زال يدفع الطفلَ، رغم حرارة الشمس وإزعاج الحصاة. . .

الحكاية كانت هذه المرة من التراث الكوري: الرّجل الذي فقد ظلّه:

«كان يا ما كان، في قديم الزمان وفي كوريا شابٌ يدعى يونيتي. حبسَ يونيتي نفسه في مدرسة بالجبل لمدة سنتين، ليقوم بالدراسة لاختبارٍ يؤهّله ليصبح موظفاً حكومياً.

اليوم أنهى يونيتي دراسته، واتّجه عائداً إلى البيت تغمره السعادة والثقة بالنفس. ترى ما الذي حدث؟ لقد فقَد يونيتي ظلّه، ولكن يبدو أنّه لم يفطن لذلك بعد. كان والدا يونيتي هما مالكا أكبر أرضٍ بالمدينة. أراد يونتي أن يرى والدَيه بسرعة، فأخذ يعدو مسرعاً إلى البيت. . . إلا أنّ والديه لم يسمحا له بالدخول. قال له والده: «من أنت؟ لن تخدعني بالادّعاء أنّك ابني. لقد عاد ابني بالأمس، بعد غيبة دامت سنتَين». وقالت أمّه: «وإضافة إلى ذلك، فأنا لا أصدّق أبداً أن يكون ابني بهذه القذارة، وأن يرتدي هذه الملابس». لم يستطع يونيتي أن يفهم ما حدث. قال والده: «سأجعلك تتأكّد أنّك محتال»، ثم نادى: «هيّا، تعالَ إلى هنا يا بُنيّ!». خرج شابٌ نظيف يلبس لباساً أنيقاً. لم يصدّق يونيتي ما رأته عيناه: «آه، يا إلهي! إنّك حقاً تشبهني!». قال الشّاب الآخر: «أبي، أُنظر إليه، إنّه وحش! ليس لديه ظلٌّ أبداً!» حدّق الجميع في الأرض، كان ثمّة ظلّ الكتاب الذي يحمله يونيتي، وظلّ مِخلاته، لكن أبداً ما كان ليونيتي ظلّ. . . صرخ يونيتي: «أنا لست وحشاً. . .»، لكنّ الجميع صرخ: «إنّه وحش، إنّه وحش!»

وانهالت عليه الحجارة. . . ركض يونيتي، وهو ما يزال يصرخ: «أنا لستُ وحشاً» . . .»

لم تكن للحكاية هذه المرّة نهايةٌ، فالطفل أيضاً ركض خارج البيت (هذه المرة دون نعله الأزرق) وهو يصرخ، أنا لست وحشاً، أنا لست وحشاً. . . وركض وعينُه على ظلّه. . .

مع ركضه ترك الطفل طفولته خلفه، تسلل إلى قلبه معنى الخوف، وصار حريصاً على ظلّه. . . لكنّه لم يفعل بحرصه غير إفقاد ظلّه قوّتَه وتفرّدَه. . . .

ثمّة زمنٌ نفقد فيه جميعنا طفولتنا. . . نهجرها، خوفاً من الظلال التي تجثم علينا. . . لكنّنا ننتهي بفقدان ظلنا، ننتهي بالامّحاء. . . .

الفصل الأوّل

1

فقال لي: - ما لعقلك ينأى ويشطّ
عن مسالكه المألوفة؟

الجحيم/ الأنشودة ١٦

قلتُ له: «انظُر! حدّق ملياً في الاختلاف!» هو اختلاف طفيف تخطئه العينُ، ما لم يكن الناظر قد وضع في ذهنه مسبقاً فكرةَ البحث عن الفروق. كان المصباحُ الكاشف موضوعاً رأساً فوق يدي اليسرى، بينما حملَت يمنايَ أولّ شيء طالته: اللافتة المُبَروزة حيث كتبَ اسمَه بحروف متكلّفة عند خطّاط يطلق على نفسه لقب «الفارسيّ». اتّسعت حدقتاه اتساعَ من يجاهد في إرضاء مخاطبه، من يجاهد في جعل الاهتمام ينطبع على جوارحه. وضع يده على ذقنه، ثمّ همّ بالكلام، لكنّه تراجع، وأعاد التحديق. كانت الحركات الثلاث: التحديق الأول، ثمّ استشراف الكلام، فالعودة إلى التحديق، متقنةً لدرجة أنّي اقتنعت بلا صدقها، وخِلتُه للحظة سيصادق على رأيي، لكنّ صاحبنا حرّك رأسه، خيّب توقّعي، وقال: «آسف لا أرى فرقاً، لكن قد يكون العيب فيّ، أنا رجل خمسيني، والنظر بعد هذه السّن لا يظلّ صالحاً لتمييز الفروق الطفيفة»، وعليّ الاعترافُ أنّي تفهّمته، إذ كنت سأقول الشيء نفسه

لو كنت مكانه. . . على أنّ هذا لا يمنع أنيّ سأكون لحظتها مخطئاً، إذ لا يغيّر الأمرُ شيئاً من صدقِ ادّعائي هذا، ثمّة فرق وإن يكن طفيفاً، فرق يعجز هوَ عن إدراكه.

واستأنف كلامَه: «على أنّ حواسَنا كما هو معروف، تخدعنا عادةً بسهولة. وعلى كلّ حال ليس هذا الواقع الملاذ الوحيد للحقائق، بل إنّي لأستطيع الجزم، لطول ما اختبرتُه من حالات وما مرّ بي من حكايا، أنّ حقائق العوالم المفارقة، هي أضعافٌ مُضاعفة مقارنة بحقائق هذا الواقع البئيس. ما أقوله، ويسعدني بالمناسبة أنّك طينة خاصة من زوار عيادتي، هو أنّ الأشكالَ الأخرى للحياة، وهي أساساً الأشكال التي يبدعها الفنُّ، تتكفّل باحتضان [وهنا بدت لعبته ساذجة ومكشوفة، إذ علمت أنّه سيجرّني لهراء فرويد، ذاك الهراء الذي قد يسمعه المرء من طلبة السنة الأولى والثانية شعبة علم النّفس، إن قيّض له ركوب الباص رقم ١١ أو ١٧، حيث يكونون ما يزالون يغذّون وهماً عجيباً، وهم الاعتقاد في أنّ دراسة علم النّفس قد تهب المرءَ ملكة أن يفهم مُحاورَه بمجرّد تحليل أقواله أو حركاته؛ كما قد يسمع المرء نظيرَ هذا الهراء في المقاهي الأدبية بالرّباط، تلك المقاهي التي لا تقدّم فيها القهوة دون حلوى، ويحضر نقاشاتها نساءٌ يتكلمن الفرنسية فقط، ويرتدين نظارات طبيّة وشالات حول المعاطف. وبموجب هذا الهراء، سيقول لي الطّبيب إنّ ثمّة أشكالاً من التعبير تتجسّد في الأعمال الفنية بالنّسبة إلى المبدعين، وبالنّسبة إلى غيرهم في أشكال تصريف بدائية مثل الأحلام، التي هي بالمناسبة أولى الأعمال الفنّية التي شكّلها أسلافنا، ولربّما دعاني إلى كتابة ما أدّعيه، فلعلّي أصيب به تحفة أدبية رائعة. . . ، وفي الواقع ينبغي أن أعترف

بدوري أنّ كلّ هذا المنولوج الجوّاني الذي استغرقني، ليس منّي في شيء، فأنا رجل بسيط، -ولا شكَ أنّي آتٍ على تفصيل هذه البساطة فيما هو آتٍ-، بسيط جداً ولست من طينة خاصة كما يعتقد هوَ، وإنّما أخبرته بعض الهراء عن حياتي وأخفيت بعض الحقائق بإيعاز من صديقي الرّاوي الذي لعب دوراً مهماً في مجرى كلّ هذه الأحداث] وكانَ الطّبيب ماضياً في هذيانه: . . .أفكارٌ لا قِبَل لواقعنا بها، إنّ للخيال واقعاً ووجوداً فعليَّين، مثل وجودك ووجودي ووجود اللافتة المُبروَزة التي حملتَها وحدّقت في اسم مُوقِّعها، قبل قليل، وما دام الخيالُ ليس ضيفاً عارضاً على الواقع وإنّما هو من صميمه، فلا أستبعد صدق ما تقوله، بل ليس بوسعي، كي أصدُقك القول، أن أكذّب أيّ شخص تخطو قدماه خطوةً داخل هذه الغرفة. لا ريب في صدق ما تدّعيه، الحالةُ التي تصفها ممكنةٌ، المسألة فقط مسألة تفصيلِ حدودٍ، وتخطيطِ حمىً. إلى أيّ عالم ينتمي ما تقول؟ ما تقوله لم أعرف له مثيلاً إلا في قصّة رجل ياباني كان اسمه «ناكاتا»، أوَ تعرفه؟ لا أشك في ذلك! بيد أنّه ما من أهميّة لذلك. . . كان السيّد «ناكاتا» يحادث القطط ويعيش خفيفاً على العالم، حتّى أنّه مثلك كان يدّعي أنّ ظله باهت قليلاً، ولكن لا أحد لاحظ ذلك. الفرق بينكما، أنّ السيد ناكاتا مجرّد شخصية تخيّلها كاتب ياباني، لستُ أذكر اسمه، أمّا أنت فلحمٌ ودم. قد تكون صوَّرتَه في عالم الواقع، ذاك أنّ العوالم من التعقيد، بحيث قد نجد لكلّ فكرة ما يطابقها على أرض الواقع».
كنتُ أُدرك عناء التّصنع الذي يضطره للحديث معي في هذه التفاهات، فمعرفته بوظيفتي ومبلغ دراستي [الوظيفة والدراسة الهراء، طبعاً]، ليست مزيّة كما يدّعي. بل أنا نفسي سأنزعج لو

كنت مكانه، إذ كيف السّبيل إلى التصرف مع من تنكشف أسلحتك أمامه؟ لا يا سيدّي الدكتور، لا تقل إنّ الأمر يسعدك، كيف يسعدك التخلي عن عجرفة أستاذك فرويد، وإطفاء سيجارِه الفاخر في أقرب كوبِ ماءٍ؟ على أنّ الأمر بالمقابل، جنّبني شخصياً تحمّل تفاهاتٍ شرحها ليَ بالتفصيل صديقي الرّاوي، من قبيل: «لنحاول معاً أن نرى ما يمكن أن تشير إليه هذه الأشياء في حُلمك؟»، أو «ماذا ترى في هذه الصورة غير كونها بقعة مداد؟» وكلّ ذاك البراز الذي لا يعني لي شيئاً... كان يبتسم، لأنّه بالتأكيد لم يطلّع على ما يجول بذهني، وماذا كان سيتغيّر لو أنّه علم ما أفكّر فيه، مادام سيصافحني في الأخير، وستستلم سكرتيرته ثمن الزيارة كما في العادة..؟ وكما في العادة صافحني مردّداً مزحته الثقيلة: «أتمنى ألا تزورني مرّة أخرى»، وكالعادة ابتسمت وأجبتُه: «لن أزورك، هذا وعد». على أنّي كنت صادقاً هذه المرّة.

سدّدت للسكرتيرة كلفة الحصّة، عند الخروج، وابتسمت لي ابتسامة من تدرك أن قدمي لن تخطو خطوة أخرى داخل عيادتها، ولم ألاحظ من قبلُ أنّها كانت جميلة. كأنّي أحسست خسارة ما. وإذ اجتزتُ عتبة الباب، صدمتني رائحة عرق لا معنى لها هنا، امتزجت ببقايا نظرة ميّتة حدجتني بها فتاة كانت بمفردها في قاعة الانتظار، لكنّي ابتهجت بوعد الهواء النافذ من الباب المشرع وأنا أهبط درجات السلّم...

في الخارج، أحسست بعطشٍ مباغتٍ ورغبة في التبول. كانت أقرب المقاهي إليّ على الجهة الأخرى من الطريق. حثثتُ خطاي، وما كان من سبيل، لأتفحّص ظلّي، إذ كنت ألوذ بظلّ الجدار اتّقاء الشواظ النازل من السماء، وبالطبع لا ظلّ فوق الظلّ. وبمجرد

دخولي ارتقيت السلم المفضي إلى الأعلى. لم يلحظ أحد دخولي أو مروري [مثلما لم ألاحظ أنّ المقهى كان باراً صغيراً، رغم تذكّري أنّي حدجت شيئاً أشبه بلافتة عليها علامة «الأمستيل»]، كانوا جميعهم ينظرون إلى التلفاز بانتباه، تبوّلت سريعاً، واستقطرتُ عضوي بعناية إذ لم يكن ثمّة من ورق تجفيف، ثمّ غسلت يديّ ومسحتها في سروالي، تماماً في الجهة الخلفية حيث الجَيْبَان، وزارتني كخيال بارق صورة أمّي، كانت أمّي تعيب عليّ دائماً مسح يديّ بعد الغسل على الجهة الخلفية من سروالي. وإذ نزلتُ السلّم، مررت إلى «الكونتوار» وتناولت كأس ماء. بدا أن لاشيء يتحرّك، كانوا لا يزالون جميعهم يحدّقون في التلفاز، انتبهتُ إلى أنهم كانوا أربعة زبائن لا غير، ثلاثة رجال في منتصف العمر، وشيخٌ شعرتُ تجاهه بألفة فوراً، حتى أنّي ابتسمت له بسعادة، فردّ على الابتسامة بمثلها. كان الشّيخ يضع أمامه قنينة نبيذ ويلوّن ورقةً مرسومة، وأثارتني الأقلام الملوّنة التي كانت منثورة على الطّاولة أمامه، كانت كلّها حمراء، لكنّ حمرتها كانت متدرّجةً، بحيث تقريباً، لا قلمَ يشبه آخرَ. وكانت الشاشة تعرضُ صورةً لحادثِ اصطدام سيارةٍ بقطارٍ سريع، وعلى الشريط الأحمر المثبت أسفل الشاشة جملة بيضاء: «أنباء عن انتحار حارس مرمى».

2

يا للعرْق البشريّ، وُلِدتَ لتطيرَ في رحاب السّماء
فمالكَ تهوي أمامَ أدنى هبّةِ ريح؟

الجحيم/ الأنشودة ١٢

بالطبع أنا ميّت. فما يجري الآن حدث بعد اصطدام القطار بسيارتي. ما كان ثمّة من سبيل للنّجاة. أو لعلّ هذه هي النجاة...

بالطبع أسمع هذه الوشوشة الآدمية.. وكلّ أصوات اللّغط الخافت... وأبواق سيارة قادمة من بعيد.. لكنّي أكاد أسمعها دون أن أسمعها، أقصد أنّي أحسّها، جسدي يتشرّبها، لا وقع لها في أذنيّ وإنّما جسدي يهتزّ لها ويستشعرها، مثلما يستشعر هذه الأضواء الساطعة التي بدأت تخبو شيئاً فشيئاً، وهذا النور الخافت الذي يزداد سطوعاً... هل الموتُ توحّد الحواس في الجسد؟

بعد قليل تطوى صفحة هذا العالم، بعد قليل أعبرُ إلى الهُناك...

أوَ لستُ هناك؟

* * * * *

حين رُكّبت حواسُّنا في أجسادنا، جُبِلَت على إدراك الأشياء واستشعارها؛ ملايين الأشياء بملايين الأعراض والمظاهر، ملايين

الأحاسيس والأذواق والأحجام... قطعةً قطعة كانت أعضاؤنا تُرصّ. كلّ هذه الخلايا التي لاعَدّ لها التي رصفت بعنايةٍ فوقَ اللّسان وعلى الجلد، وهذا الضوء الصادر من العين والوارد إليها... خطوةً خطوة ترصفُ هذه الحواس، وفي اللحظة نفسها حيث تنضج الحاسّةُ تنبثق معها إلى الوجود كلُّ تلك الأشياء التي يمكن أن تدركها: إذ نضجتِ العينُ أشرق نورُها على الأشياء فبرزت الألوانُ، خرجت من ظلامها الأعمى، صارت الأشياء أيضاً تُرى، مثلما صارت تُسمع حين نضجت الأذنُ... أيّ عملٍ جبّار هذا الذي تمخّضت عنه الحدود الفاصلة بين الألوان والأصوات والأحجام؟ تدرّج لانهائي شفيف وخفيف ولطيف إلى حدّ أنّه لا إمكان للوقوف في البين-بين... كأنّ البين-بين هو حدود إمكانات الحواس: هذا الظلام اللّيلي الذي تجاهد العينُ لاختراقه، تدركُ الأذنُ أيضاً أصواتَه وصمتَه، ويستشعر الجلدُ قشعريرةً خفيفةً وسطَه. وذاك النهارُ الذي يخلفُه سَتَراهُ العينُ بوضوح جارح، وستضجّ الأذنُ بأصواتِه كما سيخترق ضوؤه مسّامَ هذا الجسد. لكنّك لن تستشعر أبداً لحظة البين-بين، لحظة يسلم اللّيلُ مقاليدَ الحكم للنّهار. حين رُصفت الأشياء بعناية مُسحت الحدود بينها... أقول هذا استباقاً لكلّ سؤال يقصد لحظة البين-بين، لحظة انتقلتُ من الحياة إلى الموت... فما شعرت أنّي اجتزت أيّ خطّ ولا تجاوزت أيّ عتبة، ولم يكن ثمّة باب ولا جسر ولا أي شيء يُفضي من جهة إلى أخرى. كنتُ هناك وصرتُ هنا وهذا كلّ ما في الأمر. وأنا الآن لا أشعر سوى برغبةٍ جارفة في النّوم... حتّى أنّي لولا قسمات وجوه المحيطين بي، ما كنتُ لأقول فعلاً إنّي ميت. إنّ الموت إذ يحوم في المكان ينطبع على وجوه من يشهدون الميتة، من ينظرون إلى

الميت. غير أنّي لا أدري من جهةٍ أخرى هذا الاختلاف في الإدراك الذي صرتُ أحسّه، أهو ناجم عن الموت أم عن فكرة الموت، هل لأنّي صرتُ ميتاً ما عدتُ أرى الألوان بصفاء عيون الأحياء (وكنتُ تخيلت قيد حياتي -بسبب فيلم «فيم فاندرس» بلا شكّ- أنّي حين أموت ستتحوّل الدنيا إلى الأبيض والأسود، بل حتى إنّ إيقاعها سيبطئ ليحاكي فيلماً كلاسيكياً صامتاً...)، أم لأنّي أفكّر كميّتٍ أوثّر في سير إدراكي...؟ عليّ أن أنقذ ما يمكن إنقاذه، يجتاحني نزيف مروّع، اجتثاث مرعبٌ للذكريات، واحدةً تلو أخرى تمّحي الذكرياتُ، كأنّها نزفت مع الدم الدافق، أوَ يكون الدمّ سجلّ الذاكرة؟ ما اسمك؟ ما اسم أمّك؟ لمَ فعلتَ ما فعلتَ؟ أهكذا سيسألني الملاك؟ أوَ ثمّة ملاك؟ هل سيعرفني إن لم أعرف نفسي؟ ماذا لو تهت هنا في البين-بين؟ يقالُ أنّ ثمّة أرضاً وسطى، يأوي إليها الضائعون بين الانتماء إلى الفردوس أو الجحيم. ماذا لو لم يتذكّر المرء من هو؟ أيبقى ضائعاً في البين-بين؟ لي كفافٌ يسيرٌ من الذكرى، أحفظه لأحفظ طريقي، عليّ أن لا أضيعه، لئلاّ أضيعَ! وقد جاهدتُ لأحفظ بضعة أشياء تحفظني: الرسالة في الدرج، عطر المرأة التي ستقرؤها، القفاز الشاهد على هويّتي، ورائحة الطفلة في اللّفة! عليك أن تردّدها إلى ما لا نهاية: الرسالة/ عطر المرأة/ القفّاز/ رائحة الطفلة. دوّرها ودُر معها إلى نهاية الكون، هذا قدرك، وِرْدُك الأبديّ، ردّده إلى أن ينهيَ هذا الزمن دورته... الزمن... وما عاد الزمنُ ينساب انسيابَ زمن الأحياء، ما اللّحظة الآن؟ كم مضى عليّ هنا...؟ أينك يا ملاك؟ هل يسمعني أحد؟

* * * * *

في الأيام التي سبقت تعرُّضَه لحادثة سيرٍ، اصطدمت على

إثرها سيّارتُه بقطار، وقيِّدت الحادثة في سجلّات الشرطة بوصفها انتحاراً، كانتِ الصّحة النّفسية والعقلية لحارس المرمى على ما يرام، وإن استبدّ به اكتئاب، نظر إليه المحيطون به بتوجسّ. لم يكن توجّسهم ليبلغ مبلغ الظنّ في أنّه قد يقدم على الانتحار، فهو، كما ألِفوه، كان رابط الجأش قويّ العزيمة، عصفت به المِحنُ واحدةً بعد أخرى، لكنّه ظلّ دائماً منتصباً، محبّاً للحياة غير متعلّقٍ بها. لهذا كان ثمّة اختلاف في وجهة النّظر تجاه حالة الاكتئاب التي استبدّت به. ففي حين كانوا هم ينظرون إليها بتوجّس وقلق، كان هو ينظر إليها كمزاج طبيعي تفرضه المرحلة. لم يكن قد مضى أسبوع على دفنِه ابنتَه، ولم يعد يرى من سبب مقنع لتستمرّ حياته بعدها. لم يكن قد فقد طعم الحياة تماماً، ولا فقد أسباب العلاقة بالآخرين، بيد أنّه كان يرى أنّه قد منحَهم كلّ ما لديه، استنفد كلّ شيء وما عاد بمقدوره أن يعطيهم غير الابتسامة. ابتسامته تلك كانت مقلقة بالنّسبة لهم أكثر من أيّ شيء آخر. منذ عودته من مراسِم دفن ابنته، منذ رمى بيده آخر حفنة تراب على قبرها الصّغير، لم تفارق الابتسامة وجهَه، ابتسامة ذاهلة، متيبّسة، وكأنّما شفتاه تحجّرتا. والحقّ أنّ تلك الابتسامة لم تكن بالجديدة تمام الجدّة، لقد لازمته مدّة قبل وفاة ابنته، ولو أنّهم لم يلحظوها. في شهور مرضها الأخيرة، تبدّلت معاناة الطّفلة وحزنها الدّائم إلى ابتسامة ما لبثت أن انطبعت على وجه الأب. كانا كالعاشقين اللذين يحضّران لخلاصهما من هذا العالم. وصلا إلى درجة يقين، بأنّها النّهاية، فتواطآ على الابتسام. وبعد وفاتها فقط لمح المحيطون به الابتسامة المقلقة التي ما عادت تفارق فمه. مبتسم وصامت ودائم الشرود. بذل المحيطون به كلّ ما في وسعهم لإخراجه ممّا حسبوه حالة

اكتئاب. اقترح عليه الفريق مرافقتهم إلى معسكرهم الشتوي في مدينة ترِنتينو الإيطالية. عشرون يوماً يقضيها في شمال إيطاليا السّاحر، يتمّ تأهيله نفسياً وبدنياً للعودة حارساً أساسياً للفريق ما إن تُستأنف البطولة بعد فترة التوقّف الشتوية. وكان الحارس الاحتياطي قد صار في الفترة الأخيرة هو الحارس الرّسميّ للفريق، وتمّ تصعيد حارس الفريق الرّديف إلى الفريق الأوّل ليحلّ محلّ الاحتياطيّ في الاحتياط. لم تألُ أيضاً زوجته وعائلته جهداً في مواساته، إذ كانوا يدركون جيداً حجم الألم الذي يعتصره. أمّا هو فكان بئراً سحيقة، من حين إلى آخر يرمي فيها أحدهم بحجرة، فيأتيه الصدى بعد حين؛ لكن كلّما أطلّ عليها وحاول سبرَ غورها أصابه الدّوار.

وضع الرّجل حساباته بدقّة عالية.

حين كان ما يزال حارساً للمرمى كان معروفاً جداً بطريقته الخاصة في حساب الاحتمالات. ومن المعروف أنّ شخصية حارس المرمى تظهر أشدّ ما تظهر في لحظة ضربات الجزاء. في بداية مشواره كان قد حاول أن يسلك طريقة مختلفة لفرض أسلوبه الخاصّ في التّصدي لضربات الجزاء. كان الأسلوب قائماً على عدم التوقّع، على الانتظار حتّى تنطلق الكرة، ومن ثمّة القفز في نفس الاتّجاه الذي يسدّد فيه اللاّعب. بوسع هذه الطّريقة أن تحرم المهاجم من عنصر المفاجأة لكنّها في الآن نفسه تمنحه إمكان أن يتفوّق على الحارس في سرعة الانطلاق. حقّق حارسنا في البداية معدّل تصدٍ لا بأس به، إذ كان يستطيع إيقاف كلّ الكرات التي لا يقذفها أصحابها بسرعة أو لا يركنونها بعيداً، لكنّ تقنيته سرعان ما صارت مكشوفةً وبدأ الجميع يرمون الكرة بقوةٍ، ويركنونها في إحدى الجهتين القصيّتين من المرمى، متيقّنين من أنّ الحارس الذي

سيقفز في نفس الاتّجاه سيكون متأخّراً عن لحظة انطلاق الكرة بأجزاء من الثانية، لكنّها أجزاء كافية لتعانق الكرةُ الشّباكَ (كما يقول المعلّقون الرّياضيون). ما لبث صاحبنا إذن أن اضطرّ إلى العودة إلى التقنية التي يلجأ إليها أغلب حرّاس المرمى، الارتماء في إحدى الجهتين، معتمدين على قوّة التّخمين. لكنّه لم يستسلم للأمر، وينطلق إلى القفز العشوائي، وإنّما درّب نفسه تدريباً طويلاً على حساب الاحتمالات. قبل كلّ مباراة كان يعمد إلى مشاهدة كلّ ركلات الجزاء التي ينفّذها خصوم الفريق المنافس. عادة لا يتعدّى الأمر ثلاثة لاعبين إلى أربعة، وأحياناً لا يكون ثمّة أكثر من لاعب واحد يُعهد إليه بضربات الجزاء. كان يتابع كلّ الفديوهات المتاحة على اليوتوب؛ ثمّة دائماً ميلٌ لدى كلّ لاعب إلى قذف الكرة باتّجاه معيّن، نادراً ما يغيّره، كما أنّ كلّ فريق يعيّن مسبقاً رامياً لركلات الجزاء، ما يسهّل عملية التّوقع. حقّق حارسنا في مدّة يسيرة من الزمن صيتاً خارقاً، وانهالت عليه التّسميات والألقاب، بل وصار بطل المراهنات. عملياً كان النّقيض التّام ليوزف بلوخ حارس بيتر هاندكه؛ ولو أنّ عالمه الدّاخليّ لم يكن ليختلف كثيراً عنه.

كان حارس المرمى إذن رجل حساباتٍ، يحسبُ كلّ شيء. ولذلك لم يُفلت قرار عبوره إلى الجهة الأخرى من مسألة الحسابات.

بالنّسبة إلى جميع من يتداولون خبر انتحار شخصٍ من الأشخاص، فإنّ النقاش لا يخرج من إطار مسألتين: الدّافع والأداة. ما الذي دفعه إلى الانتحار؟ وكيف انتحر؟ لدرجة أنّه من السهل وضع جرد مفصّل بأساليبِ الانتحار (مع حساب نسبة فعاليّتها وسرعتِها)، وبدوافعه (مع ترتيبها من حيث القوّة ونسبة

التواتر)؛ لكنّ الأمور عند المُنتحر لا تتوقّف عند هذه الحدود، إنّ الانتحار يبدأ عنده بزمنٍ قبل الإقدام الفعليّ عليه، والأسئلة ليست أسئلة فعاليّة وسرعة ودوافع فحسب. هو لا ينظر إلى من يخلّفهم وراءَه ككتلةٍ واحدةٍ، وإنّما يفصّلهم تفصيلاً، بحيث تستبدّ به معرفةُ ما سيقوله كلّ واحدٍ بعده، وماذا سيخلّف في نفسه رحيلُه، وكيف ستصير حياتُه.

على أنّ إشكالات صاحبنا لم تتوقّف عند حدود تلك الأسئلة التي يمكن وصفُها بالعرَضيّة، لقد أراد أن يفهم جوهر الإقدام على الموت نفسه.

مئات الآلاف من الصّفحات على شبكة الإنترنيت تتحدّث عن الانتحار أو الموت، لكن دون أن تقول شيئاً. أكثر من نصفها يستعيد الأفكار الدينية عن الخلاص وسؤال الخلود، بل وحتى مدى مشروعية الانتحار؛ وما تبقى من صفحات تائه بين خواطر شخصية عن الموت وعددٍ مهول ممّن يصرّحون برغبتهم الفعلية في الانتحار ويتبادلون معارفهم عن أنجع الطّرق وأقلّها إيلاماً، بل ثمّة حتّى من يرغب في مشاركة الآخرين لحظات انتحاره. لكنّ جميع تلك الكتابات تتعامل مع الفعل كأنّه ظاهرةٌ خارجيّة، كأنّما هو فعل يمكن عزلُه ودراسته، كأنّما الأمر لا يعني كياناً حياً له وعيٌ وشعورٌ وذاكرة وتاريخ شخصيٌ يوشك أن ينتهي!

حتّى الدّراسات الأدبيّة أغلبُها تتحدّث عن «أدباء منتحرين»، وقليلةٌ جداً تلك التي تتحدّث عن نصوص عالجت الانتحار. دراسات بالجملة تحكي عن كاتبَين يابانيّين غريبي الاسم، صورُهما على صفحات الشّبكة بالأبيض والأسود، أحدهما له هيئة قاتل متسلسل والآخر شعره لا يتناسب مع نظَرَاته. يقولون إنّهما انتحرا

بطريقة «الساموراي»، وحتّى لو قضى المرء سنواتٍ في قراءة الكتابات التي تشرح سبب انتحارهما، فلن يعرف السّبب. وفي نهاية المطاف يبدو كأنّ لا أحد يريد أن يعرف السّبب، مع أنّ سبب الانتحار عادةً ما يكون واضحاً ويتمّ التعبير عنه بجملة أو حتّى كلمة واحدة. كأنّما الجميع يتواطأ على التّفلسف حول أسباب انتحارهما، ليس هما فقط، بل أيضاً الرّسام المدعو فان غوخ وكاتب آخر اسمه همنغواي، وكثيرون غيرهم. يبدو أنّ الانتحار يغذّي متعةً خالصة لدى النّاس: متعة نسج الحكايات وابتكار الأسباب. على أنّ هذا الأمر ينسحب خاصّة على المشاهير، أمّا بالنّسبة للعامّة، فيتمّ محوُ السلسلة بأكملها التي أدّت إلى الفعل النّهائيّ، واختزال الأمر في كلمة تشير إلى الدّافع النّهائيّ: «انتحر لأنّه فقد عزيزاً»، أو «لأنّه لم يعد يتحمّل آلام المرض».

الحالة الأدبيّة الوحيدة التي أثارت اهتمامَه كانت لكاتبة تُدعى فرجينيا وولف، أحسَّ بأنّه داخل نسقِها، أنّهما واحدٌ، أنّه يستعيد فعلها، أنّها ابنتُه قد وُلدت في زمنٍ سابقٍ، وسلكت الطّريق قبلَه. كان يراها بوضوحٍ تجري في الحقول حتّى تبلغ البحيرةَ وتُثقل جيوبها بالحصى قبل أن ترتمي فيها. وحين كان ينامُ، كان يحلم بابنتِه، يراها تلعب بالحصى ثمّ تخبّئها في جيوبها حينَ تراه قادماً، وحين تدخل غرفتها تخرجها وتتأمّلها طويلاً أمامَ المرآة. يأتي هوَ من خلفِها فلا يرى نفسه في المرآة، يناديها «ناتاشا»، رغم أن اسمها لم يكن في الواقع «ناتاشا»، فلا يسمع صوتَه، يلتفت إليها فلا يجدُها، هي فقط في المرآة، هي في المرآة وهو خارجَها، يدرك أنّ لا سبيل أمامَه إلا أنّه يدخل إلى المرآة إن هو أراد اللّحاقَ بها، لكنّه يستيقظ كلّ مرّة قبل أن يلجها...

0

ذلك أنّنا نرْقى هنا بفضلِ مَن هُم هناك.

المَطهر/ الأنشودة ٣

«. . . . ثمّ حدقتا عينيّ اللّتين تزدادان اتّساعاً، وأخيراً هذا الشّق الذي تفترّ عنه صفحة السّماء. . . وأكادُ أراه. . . ثمّ الاستفاقة كمطرقة. . . .»

بالطبع أنا أحلم. . . .

فمنذ ابتليتُ بمرض الأحلام، لأسباب لا ريب أنّي مُفصّلها فيما سيأتي، لا أعيش حياتي إلاّ عرَضاً. . . صارت حياتي عالماً ملحقاً بالحلم، وأيّ حلم؟ سطرٌ واحدٌ يكفي لوصفه، لكنّه سطرٌ كُتبَ بعناية إلهٍ، سطرٌ واحدٌ كثّف معنى الحياة هنا، سطرٌ واحدٌ يبتدئ حرفه الأول ما إن أغمض عينيّ، وأفتحُ عينيّ ما إنّ يُخطَّ حرفُه الأخير. . . : «(لحظة متعذّرة الوصف) . . . ثمّ حدقتا عينيّ اللّتان تزدادان اتّساعاً، وأخيراً هذا الشّق الذي تفترّ عنه صفحة السّماء. . . وأكادُ أراه. . . ثمّ الاستفاقة كمطرقة. . . .» وهذا كلّ ما في الأمر، أمضغ هذه الترنيمة منذ الأزل، وأزلي منذ حلّت بي اللّعنة، واللّعنة عاقبة خيانة الأمانة. . . وأفتحُ عينيّ. . .

وأفتح عينيّ، إذ أفتحهما، ولا أرى غير هذا الخلاء الممتد، وهذا الرّكام من المبعدين الملاعين.

لبعض الملاعين وجوه مكتملة ورسوم مشخّصة، أما الباقي فأنصاف مكتملين.. أضع أصابع يدي الأربعة لأتحسس ملامح وجهي: الأنفُ الصلب المكتمل، أنفُه، والفم الدقيق، والعيون المسبلة، آهٍ كم كنتُ أحبّ التحديق في عينيه المغمضتين، حينما كنتُ أحرسُ أحلامهُ ليلاً... كان غاية حياتي، كنت سأرضى أن أتوقّف عنده وألاّ أطمع في المزيد من الترقّي في مراتب الملائكة. أحببتُه. وحين أحببته خفقَ القلبُ، صار لي قلبٌ، آمنتُ به عاشقاً... بحثتُ عنه ليلة تلو أخرى في شساعة هذا العالم، تدرّجتُ من مرتبة إلى أخرى، وانشغلت بجميع المهام، إلى أن قادني القدرُ إلى ديوان الأحلام الأعظم.

اِشتغلتُ في البداية ملاكاً طابعَ أحلام، كنت أطبع ملايين الصور يومياً. كنّا نقعي صفّاً نُدلّي أقدامنا في أحواض بها شيء لزجٌ، ونبدأ في الهذيان، ثمّ تنبثق الأشياء، هلاميةً في البداية معمّاة الرّسم والوسم، ثمّ تتشكّل وتأخذ أسماءَها. سماء كاملة من الصور كانت تتشكّل عند رؤوسنا: أياد وأقدام، وأمعاء، ووحوش ضوارٍ، وكعك العيد، وضحكة الأمّ وروائح البخور، والخوف من الحشرات، ونكهات الطّمي والطين، وعيون الكلاب الوفية، وزغب العانات الخفيف، والخيط البارز من السروال، ومعاني الكلمات، وفقدان معاني الكلمات، والحافة والخطر والبلل... بلايين الأشياء، والألوان بتدرّجاتها، والفروق واللّطائف... كلّها كانت تتصادى فوق رؤوسنا ضباباً من اللا معنى... بعض الملاعين ممّن أراهم هنا على هذه الأرض، خانوا الوظيفة مذ كانوا في البداية،

مذ عمِلوا طابعي أحلام، بعضهم اقتاتَ على خوف ما ينتجه، وبعضهم أدمنَ النظر إلى صورةٍ خالَها نفسَه وبعضهم أُدين بسرقة الصورة التي عجز عن إخفائها... أمّا أنا فقد قاومتُ، وتدرّجتُ، وصرتُ إلى رتبة لاحمِ صُور وواهب معنىً. كانت الوظيفة جسيمة، ومن الخطورة بمكانَ، أن تلحم الصوَر، أن تنفق ليلَتك في ربط عناصر الحلم، أن تجتهد في ضبط ذاك المعنى نفسه، الذي سيراه البشريُّ النائمُ وسيجزم غداً، بأنّه رأى حلماً لا معنى له، مثل جميع الأحلام! بلايين الصور كانت تمرّ أمام ناظريّ كلّ ليلة، لكنّ من كلّ تلك الصور ما كان لي أن أخطئ بين صورتين، فصورة اليد، يوجد منها ملايين الصور، كلّ صورة قد تختلف بلطيفةٍ بسيطة عن الصورة التي تسبقها، حزٌّ خفيفٌ على يد يجعلها مختلفة عن يد أخرى، أو جزء من ميليمتر من خط بصمة على إبهام يد أخرى قد يحسم الفرقَ. إنّ الأمر ينطوي على القدر نفسه من الخطورة التي تنطوي عليها مهمة رصف جينات مخلوق ما في شريطه الحمضي، إذ إنّ خطأً واحداً في جينة مهما بدت تافهة، قد يجرّ الويلات على المخلوق، سيجعله مخلوقاً آخر ويجعل أحفاده وسلالته أحفاداً آخرينَ وسلالةً أخرى... وعليك دائماً أن تجد اليد الصحيحة، وإلاّ ضاعَ الحلم.... وكنتُ أجدها. كانت لي حاسة لا تخطئ، لذا تدرّجت حتى صرت ساعيَ أحلام... أمين أحلام، ذاك الذي تسند إليه أخطر الأمور: أمور الأمانة...

عملتُ في البداية أمين أحلام لبعض الأطفال، كانت أحلامهم بسيطة، هذا ما قدّرته، كانوا يبتسمون أو يفيقون مذعورين ويبحثون عن أمّهاتهم، أو يبولون بلذة عجيبة... لكنّهم كانوا يفعلون كلّ ذلك ببساطة بالغة، ودون تعقيد. بيد أنّي ما رأيت ولا مرّة حلماً من

أحلامهم، ما كنتُ لأخون الأمانة، لم أخنها حتى التقيت عاشقي الأبديّ... وعملتُ أيضاً أمين أحلام أحد المساجين، كانت تلكَ إحدى أقسى تجاربي، إذ ما كنت أضع كفّي تحت رأسه، كي يَقرأ ما خُطّ فيها، حتّى يقفز من سريره ويستفيق، فأتبخّر ولا أحمل معي غير رجفة عنيفة وصدى اسمٍ يتردّد في سمعي كالمطارق، خمّنتُ أنّه اسم قتيله... ليلة بعد أخرى، عاماً بعد عام، دهراً بعد دهر، ما بين اللّصوص والحالمين والقذرين والمبعدين، والجميلات النائمات مسندات الرؤوس إلى زجاج نوافذ القطارات، وعابري السبيل الذين يستلقون تحت ظل الأشجار في الظهيرة ويحلمون بجذور النباتات والخوف من الأفاعي، والجدّات الطيبات اللواتي لا تتوقف ألسنتهنّ عن الدعاء للأبناء وأبناء الأبناء وأبناء أبناء الأبناء، حتّى في النّوم... كنت أحمل أحلام المنفى وأحلام العودة إلى الأوطان، وأحلام الحرية وأحلام الجنس وأحلام الأحلام، وأحلام اللاشيء... إلى أن ألقاني قدري بين قدميه...

منذ أولّ حلم أوصلته له، صدمني الدفء الذي أحسسته في كفّي إذ وضعتها تحت رأسه، لكنّي تغاضيت عن الأمر. عملتُ في خدمته سنتين. في السنة الأولى ما كنتُ آبه حقاً لما يحلم به، رغم الدفء ورغم الألفة الخاصة التي بتُّ أحسّها تجاهه، كان في نومه أجدر باسم الملاك منّي. وأعترف أنّي حسدته، حسدت الدّعة التي تُخيّم على وجهه، كان حيّاً. كلّ النّوام أنصاف موتى، كلّهم دون استثناء، حتّى الأطفال، لكنّه هو كان حيّا نابضاً بالحياة، كان حيّاً حتى أنّي حسبت أنّ الحياة كانت تفيض منه، كان نبع حياة، وهذه الكفّ شاهدةٌ على الأمر... تُرى بمَ يحلمُ هذا الرّجل؟ أيّ أحلام هي هذه التي تهبُ الحياة للجسد الميت؟ كان خطئي السؤال،

فالسؤال أصل الفكرة، والفكرة سرطان الذهن، كرة الثلج التي تتدحرج وتكبر في مسار لا يعرف النهاية... وأذكرُ، أذكر اليوم الذي خنتُ فيه أمانتي... يوم شاهدتُ حلمه. وصلت تلك اللّيلة ككلّ ليلة في موعدي المنتظم، اقتربت منه، وبكل تصميم بدل أن أدسّ كفّي تحت رأسه، بسطتُها أمام ناظري وتمعّنت فيها. ما كانت ثمّة غير البياض، كان بيضاءَ خاليةً، لا سطور مخطوطة فوقها، ولا حتّى تقاطيع من مثل تلك التقاطيع الموجودة على أكفّ البشر. وكيف لم أنظر قبل ذاك اليوم إلى كفّي؟ لا شيء في هذه الكف يدلّ على أنّها كفّ، لا ذكرى بها، لا شكل مخصوصاً، لا حزّ أو جرح لا أثر لملمس أنثى أو أب، لا شيء... على أنّ هذه الأشياء التي تساورني، تساورني اللّحظة إذ غدَت لي كفٌّ، أما ساعتها، قبل أن أنتهك المحظور وأختلس النظر إلى حلم الرّجل، فما كان يعنيني كلّ ذلك، ما كان يعنيني أن لا تكون لي كفّ ولا حتى رأس، ما كنت أشعر بأي نقص.

حينما لا يعوزنا التصميم لا تعوزنا الأفكار. كأنّي بي كنت عارفاً ما ينبغي أن أفعل لأقرأ كفي. بدل أن أضعها تحت رأسه

وضعت ظاهر كفّي على وجهه، فانكشفت أسطر المستور، واتّضحت خطوط الكفّ، شاهدتُ الحلم، حلم الرّجل.....

1

وأنت تنعطف يميناً إلى الزقاق الأول بعد مجاوزتك ملحقة المدرسة الإدارية، وتترك عن يمينك صفّ الدكاكين، وعن يسارك البيوت القديمة، وتتجاوز مصبَنة الكوثر، ثمّ صيدلية ابن الهيثم، وتلج الباب الموجود لصقها مباشرة، ستكون قد اجتزت المسار نفسه الذي يقطعه الغربي بنعمرو يومياً بعد نزوله من التاكسي الأبيض، أثناء عودته من الخزينة العامة، حيث يشتغل موظفاً متدرباً. وهو المسار نفسه الذي يقطعه اليوم عائداً من عيادة الدكتور النفسيّ صاحب اللافتة المُبروزة، حيث كُتب اسمه (اسم الدكتور طبعاً) بحروف متكلّفة عند خطّاط يطلق على نفسه لقب الفارسي. وإذا ما تراجعنا إلى الوراء صعداً، وأمعنّا في ترتيب طريق الغربي اليومية، قبل النزول من التاكسي الأبيض، فلن نضيف غير خطوتين أو ثلاث، فمحطّة الترام على بعد خمسين متراً من مقرّ عمله، لكنّه يفضّل المشي حتى المحطّة الثانية المقابلة لكاتدرائية الرباط، لسببين: أولهما أنّه ملزم بالنزول في تلك المحطّة وتغيير الترام، ويحسِب، لسبب لا أدركه (وأخاله أيضاً لا يدركه)، الصعودَ والنزول أشقّ عليه من المشي. والسبب الثاني أنّه، على عشقه العزلة والسّير جنب الحائط، يحبُّ التواجد بالقرب من الناس، شرطَ أن لا يختلط بهم، وفي محطة الترام المقابلة للكاتدرائية

بساحة الجولان، يكون ثمّة حشد لا بأس به من الرّكاب، خاصة الفتيان الأنيقين والفتيات الجميلات، ذوات القدود المرصوصة والمؤخّرات المشدودة.

إنّ النظر إلى النّاس، والإحساس بوجودهم، والابتعاد عنهم في الوقت نفسه، يمنح صاحبنا راحة وأماناً يعجز عن تفسيرهما.

ها أنت ذا تبلغُ البابَ، سيكون الباب مفتوحاً بلا ريب، لأنّ لا بوّاب للعمارة الصغيرة، وأطفالُ ساكن الطابق الثالث يضعون حجراً صغيراً يمنع انقفالَ الباب، حتّى يكون بوسعهم الدخول والخروج بيسر وحرية أكبر. قلنا إنّك تبلغ الباب، وسيكون الباب مفتوحاً، سترتقي درجات السلّم الأربعة والأربعين أو الخمسة والأربعين، لستُ متأكداً من الرّقم، ففي كلّ مرة يَعدُّ الغربي الدرجات يستقرّ الأمر عند أحد هذين الرقمين. ستُلفي نفسك أمام باب الشّقة الرّمادي. لا تنسَ أن تطرقَ الباب طرقتين قبل أن تستعمل المفتاح، في الغالب لن يفتح لك أحدٌ وإن كانوا موجودين بالشقّة، لكنّ الضرورة تفرض عليك أن تطرق قبل إعمال القفل في المفتاح. كان هذا شرط عادل، الذي يُنطق اسمه هكذا: «عديل»، قلتُ إنّ هذا كان شرطه قبل أن يلتحق بالغربي والمختار ليسكن معهما في الشّقة. لم يتفّهم المختار الأمر في البداية، فبالنسبة له لا معنى لكل هذا الهراء، لديك المفتاح وثمّة القفل، تضع شيئاً في شيء، مثلما توضع كلّ الأشياء في كلّ الأشياء، وهذا كلّ ما في الأمر. لكنّ إصرار عادل روّضه على مهل. أمّا بالنسبة للغربي فسيّان. لم يكن طرقُ الباب قبل فتحه بالمفتاح يدخل ضمن نسيجه الثقافي، لم يمتلك مفتاحاً طيلة طفولته، وعندما كانت أمّه تغيب لسبب ما عن المنزل، كانت توكله وإخوته لإحدى الجارات، أو ببساطة تطلب

منها تفقّدهم. لكنّه تفهّم رغبة عادل في الخصوصية، خاصّة حينما تعرّف طبيعته بعدما شاركهما السكن، وشهد طوابير الفتيات اللاتي تردّدن على غرفته.

يتشارك الغربي إذن سكنى شقّة بالطابق الثاني من بناية قديمة. الشقّة غرفتان وصالون، كانت له غرفة وللمختار غرفة، لكن حين التحق بهما عادل، أصرّ على أن تكون له غرفة تقفل بباب، فكان على أحدهما أن يتنازل ويعيد ترتيب الصالون ليصيّره مرقداً. وانتهى الأمر بالمخيتير (هكذا يدعوه الجميع حين يتنازل ويبدي جانب المَسْكنة) إلى التنازل، فهو كان أكثر حاجة من الغربي إلى عادل، كان يحتاج إلى من يساعده على أجرة الشّقة. أجرة الشّقة ألف وثلاثمائة درهم، إضافة إلى مائة درهم ثمن الماء والكهرباء، لأنّ استهلاكهما مشترك بين السّكان. يدفع إذن كلّ واحد أربعمائة وسبعين درهماً. في البداية حين حسب المختار المبلغ الواجب دفعه بالنسبة إلى كل واحد، قال إنّ المبلغ هو أربعمائة وستّة وستون درهما، وستّة وستون سنتيماً، سيكون من الصّعب تدبّر السنتيمات لأنّ الدولة ما عادت تسكّها. ضحك الغربي وعادل، ودفعا أربعمائة وسبعين درهما، صارت عُرفاً. على أنّ علينا الاعتراف جميعاً، في هذا المقام، بالتضحية التي قام بها لمخيتير إذ قبِل أن يأوي إلى الصالون.

عادل أنيق جداً، ولا يشرب كثيراً، بينما يستطيع المختار أن يعبّ البحر، شرط ألاّ يدفع ثمنه. يستيقظ المختار باكراً، يرتدي ملابس العمل التي يكون قد جهّزها مساء، وينتعل حذاءه اللّماع، وينصرف بعد أن يشرب كأس شاي ويتناول خبزاً ممّا بقي من العشاء، يدهنه بالمربّى والزبدة. هو أحد البؤساء الذين يشتغلون في

مهنة الحراسة الأمنية. يقول إنّ نائب الرئيس، أحد أقرباء والدته من بعيد، من بعيد البعيد، ذاك البعيد الذي يطلق عليه المغاربة «رائحة الشحم في الساطور». يجنّبه هذا الأمر دوائر الزّمن ومنعطفاته، فهو على الأقل لم يغيّر مكان اشتغاله منذ بدأ العمل مع الشركة. وقد كلّفوه بحراسة مبنى إداري تملكه الدولة، ولا حاجة لحراسته ليلاً. الآخرون ممّن لا وسيط لهم يشتغلون بعقد مدّته ستة أشهر، ثمّ يمزّق صاحب الشركة العقد ويلزمهم بكتابة آخر والعمل في محلّ آخر، إن هم أرادوا الاستمرار. يجنّبه الأمر (الهاء تعود على المدير طبعاً) دفعَ الضرائب، والحقوق المترتبة للعمال. القريب نفسُه نصحَ المختار باقتناء كلب، كلب من فصيلة الرّاعي الألماني، أو ما يشاكلها. يمنحونك امتيازاً بفضل الكلب، وقد تصيب ألف درهم إضافية نظير التوفر عليه. وبالفعل اقتنى المختار كلباً من فصيلة «ما يشاكلها» ولكنّه ظلّ مُصراً على أنّه «بيرجي حرّ». الكلب البيرجي الحرّ من فصيلة «ما يشاكلها» يبيت عند حارس الحيّ، والحارس يتلقى نظير ذلك، مائة وخمسين درهماً شهرياً.

مع مجيء عادل للسكن مع صاحبينا، تغيّرت أمور كثيرة، صار ثمّة رفّ خشبي في الحمام عليه أنواع كثيرة من الشامبو والعطور. لم يفكّر أحدهما في هذا الأمر من قبل. كانت للغربي صابونته الخاصة «ماركة الطاووس» برائحة الخزامى، يغسل بها وجهه في الصباح وقبل النوم، وللمختار قارورة عطر نصف لتر من عطور مدينة قلعة مكّونة المجيدة، عدا ذلك كانا يكادان يشتركان في كلّ شيء. اِشترى عادل أيضاً تلفازاً وجهاز استقبال دريم بوكس. وصار المختار يشرب مرّتين في الأسبوع مجاناً، ولا يساهم أغلب الوقت في ثمن الطعام.

القول بأنّ لكلّ منهم غرفته الخاصة فيه شيء من المبالغة، فهم يعيشون مثل كائنات في خليّة مفتوحة، متنقّلين بين الغرفتين اللتين تظلاّن مفتوحتين أغلب الوقت، والصالون المُشرَع حيث وُضع جهاز التلفاز الجديد، وكنبة يجلسون عليها نهاراً وينام عليها المختار ليلاً. ثمّة أيضاً صورتان لطائر بجع، وطائر آخر لست أدري ما فصيلته، اقتطعهما المختار من مجلّة *Les oiseaux*، وألصقهما بعناية على الحائط. المختار يحبّ العصافير كثيراً، لا يملّ من الحديث عنها، يستطيع أن يتحدّث عنها ساعاتٍ طوالاً، وعندما يسكر تماماً من قنينة الجِن ذات سعة ٢٥٠ سنتليتراً والتي تكون مخبأة بعناية في جيب معطفه «التروَاكار»، والتي يكون قد اشتراها من النقود التي أعطاه عادل ويعتقد أن لا أحد يراه وهو يعبّ منها جرعات بينما يشارك رفيقي سكنه في قناني الهاينكين، يبدأ في تحريك يديه، ويشعُر، نعم المخيتير يقول شعراً: «النّاس طيور نسيت كيف تطير!».

هو ذا إذن صاحبنا: اسمه الغربي بنعمرو، وليس يدري لاسمه من إحالة جغرافية أو ثقافية عدا كونه اسم الجدّ، ويتحمّل أحد الأعمام وزْر حمل الغربي لاسم ما عاد له أي سهم في سوق التداول. أمّا لغوياً، فالغربي، بالنسبة للمغاربة، هو ريح الصّبا، ممّا يفسّر الطبيعة الهوائية التي يحسّ صاحبنا بالانتماء إليها. ولد الغربي بنعمرو في اليوم الأخير من الشّهر الأخير سنة ١٩٨٠، بينما العالمُ يُعلِن عن الاكتشاف الرسمي لأول حالة ايدز موثّقة، ويأمل الأمريكيون في إطلاق أول شبكة إنترنيت في العالم للاستعمال العموميّ. ولا نستطيع الجزمَ في صحّة المعلومتين السّابقتين، لكن لا نملك إلا إيرادهما، ما دام صاحبُنا عاش حياته بأكملها مؤمناً بأنّ

سنة ميلاده وقعت بين بُرجي النّحس والسّعد، وظلّ يورد المعلومتين اللتين ذكرناهما كلّما أراد أن يحدّث أحداً عن نفسه. يسكن الغربيّ في الطابق الأول من عمارة قديمة، فوق صيدلية. ناحلُ الجسد إلا من سنتمترات شحم زائدة تكدّست عند محيط الخصر، بفعل الجلوس المطوّل أمام المكتب وإدمان التلفاز والحاسوب. أشرف على الثلاثين، ولم يتخطّها بعد، لكنّه مع ذلك لا يصعد درجات سلم العمارة الأربع والأربعين أو الخمس والأربعين، حتّى تكون أنفاسه قد تقطّعت، ويصل لاهثاً، بيد أنّ ذلك لا يزعجه، لقد تكيّف مع هذا الوضع، بل يمكن القول إنه ما تكيف معه، وإنّما عاشه كما هو إذ لم يعرف واقعاً سواه، ولم يتخيّل حقيقة غيره.

ودونما دافع من رهبنة لم يتزوّج، ولم يعرف سوى امرأتين: إحداهما تشتغل هنا أسفل العمارة، تحديداً في تلك الصيدلية التي تحدّثت عنها في الأسطر القليلة السابقة، كانت تأتي من حين لآخر، لتشاركه لعبة رفع السيقان في قيظ الظهيرة، بينما أختها تنعم بالقيلولة في مختبر الصيدلية؛ وفتَى الصيدلية، الذي كان على علم بكل ما يجري، يلهو برسم الوضعيات التي قد تكون فيها أخت مشغّلته.

في المرّة الأولى التي هاتفَته فيها أمينة (أخت صاحبة الصيدليّة) لم تُعلن عن نفسها، أخبَرته أنّها صديقة إحدى الفتيات، وأنّ صديقتها تحبّه إلى حدّ المرض، لكنها تخجل من مصارحته بالأمر، ظلت ترسم عليه السناريوهات وتبني عالماً غرائبياً من الحبّ العنيف، الحب الذي لم تتجاوز فيه هي دور «كيوبيد» رسول العشاق. بالطبع ما كان الغربي يطمح في أي قصة حب من هذا القبيل، ولا يرغب أصلا في علاقة بأي أنثى، لكن توقاً جارفاً

اجتاحه في أن يكون طرفاً في حكاية حبّ يسمع بها دون أن يعيشها، عرف كلّ التفاصيل عن سارة، الصديقة التي تحبّه ولا تريد الإفصاح عن نفسها، كوّن عنها صورة شاملة، وتعاطف معها لأنها بشكل أو بآخر تعيد قصّته، كانت الانعكاس المرآوي لعلاقته بنهال، هو أيضاً أحبّ نهال واكتفى بحبها عن بعد، ولن يجد بداً من الاعتراف أنّ سارة صارت تحتل مساحات من تفكيره ما خالها يوما تكون لغير نهال. كان مثلاً عندما يستيقظ صباحاً وتماماً بين اللّحظة التي يعدّ فيها قهوته واللحظة التي يرتشفها فيها، تخطر بباله الفتاة المسكينة التي قطعاً ستكون الآن تحرّك فنجان قهوتها وتفكّر فيه فينتابها شعور غريب، هو مزيج من الرّغبة في عبّ براميل من القهوة والعجز عن ابتلاع قطرة واحدة منها، وفي طريقه إلى ساحة الجولان حيث تكون الكلمة الوحيدة الطاغية على ذهنه هي «ترام» لا يستطيع أن يتخلّص من أفكار، سرعان ما يؤنّب نفسه بسببها، إذ يتخيّل الفتاة النحيلة تندفع، بعدما بلغت أقاصي الرغبة واليأس، لتعانق مقدّمة الترام، ومرّة انفصل رأسها عن جسدها وطار في الهواء، فأمسكه بيده ذاهلاً لا يدري ما يفعل، حتى أيقظه من شروده صوت امرأة ينبهه إلى أنّه يسير فوق سكّة الترام. لكنّه ظل على موقفه الرافض لأيّ انخراط فعليّ في علاقة حبّ مع سارة أو مع غيرها، فقلبه لامرأة واحدة لا غير، لا بل رفض حتى التقاء «مرسول الحبّ» أمينة في بداية الأمر. لن يقبلَ بالفكرة إلا بعد زمن كافٍ لكي ينجب فيه من سارة لو أنّه كان قد التقاها فعلا وتزوّجها. عندما التقى أمينة للمرة الأولى، كان قد واعدها في أحد مقاهي مارينا، حَضر بربع ساعة قبل الموعد المحدّد، بسرواله الجينز ومعطفه الأسود الأنيق، والإيشارب الرمادي، كان يرشف الرّشفة الرابعة من

قهوته السوداء، حين رآها قادمة من بعيد، فتاة بسيطة، تليق برَسُولاتِ الحبّ متوسطات الجمال، أولئك اللواتي لا يمكن أن يكنّ أكثر من وصيفات للملكة. وعندما سلّمت عليه همّ بالحديث لكنّها قاطعته بسرعة، وسيلاحظ بعدها أنّها تتكلّم بسرعة كبيرة، قاطعته قائلة: «أرجوك أرجوك سامحني!»، بالطبع لم يفهم الغربي شيئاً، لكنها استطردت بالإيقاع السريع نفسه: «سامحني، لأنّي كذبت عليك، سامحني، لا وجود لأيّ سارة، أنا معجبة بك، لكنّي قدّرت أنّك شاب بحساسية خاصة، ما كنت لتقبل الخروج معي لو صارحتك برغبتي مباشرة». نبلغ بالتأكيد لحظة حاسمة، لأنها ستنزع عن صاحبنا كلّ مثالية قد يسبغها عليه قراء من نوع خاص، صاحبنا أيضاً عوى الذئب في داخله وقرّر في قرارة نفسه أنّ «أي شيء أحسن من لا شيء». وفي طريق عودته، ظلّ محرجاً لأنّها رافقته طيلة الطريق، ما كان يعلم كيف السبيل إلى توديعها، إذ كان قد اقترح عليها توصيلها لكنها أصرت على مرافقته، رافقته الطريق كله، حتى بلغ الانعطافة إلى اليسار التي تحدّثنا عنها في بداية هذا الفصل، هناك سبقته بخطوات، وسارت متقدمة أمامه نحو البيت، لكنها بدل أن تدخل البيت دخلت الصيدلية.

* * *

في المساء، كان على الغربي أن يَخبرَ تجربة انقلاب الوضوح إلى غموض والغموض إلى شفافية. سيكون لأوّل مرة منذ بدأ الحديث مع أمينة على معرفة تامّة بهوية مخاطبه. بل إنّها ساعة فتحت «المسنجر» وضعت صورتها الشخصية بدل صورة القطّة الشهباء التي كانت تضعها أيام كانت تلعب دور الرسّول. لكنّ هويّتها بدت أشدّ ضبابية، حتّى صورتها بدت غامضة وملتبسة كأنّما

هي ذكرى تلوح من وراء تخوم الذاكرة. كان يشقّ عليه أن يؤمن بحقيقة بساطة الأمر: ليسَ ثمّة من سارة ولا عشق أليم ولا هم يحزنون. لن يدرك بعد ذلك كيف تحولت كلّ المشاعر المثالية إلى رغبة مادية هوجاء تجاه هذه التي ليس متأكداً حتى ممّا إذا كان قد قابلَها فعلاً أو أنه كان يحلم (أكان حرياً بي استعمال هذا الفعل؟).

ظلا يتحدثان على المسنجر يومين آخرين، ثمّ في اليوم الثالث اتّفق معها على القدوم عنده. كان ثمّة طريقان تفصلانهما عن بلوغ السرير. الطريق الأولى لا تبعد سوى خطوات قليلة، هي تحديداً الخطوات الأربع التي تفصل باب الصيدلية عن باب العمارة، لكنّها طريق طويلة من حيث المخاطر التي تحفّ بها، أما الطريق الثانية فمن باب العمارة إلى باب الشقّة في الطابق الثاني. تكفّلت هي برسم خارطة الطريق الأولى بينما تكفّل هو بالثانية. وما تبقى من مسار الرحلة إلى السرير سيقطعانه معاً.

عندما غادرت أمينة الصيدلية كانت الساعة تشير إلى الثانية وأربع وعشرين دقيقة، وهي ساعة قائظة، تكون فيها كلّ الأجسام الحيّة في حالة استرخاء، وهدوءٌ مريب يعمّ الحيّ، ولا زبون يلوح في الأفق، لذا لم تعترض أختها. أخبرتها أنها سترى صديقة بسرعة ولن تتأخر. غادرت الصيدلية وبدل أن تقصد باب العمارة المجاور ذهبت في الاتجاه المعاكس. سارت ما يفوق المائة متر ولفّت إلى الشارع الخلفي، بحيث صارت الصيدلية وعمارة الغربي خلف ظهرها، ثمّ انعطفت يمينا وعادت إلى شارع الغربي من الجهة الأخرى، سارت وكأنما تقصد الصيدلية، لكنّها قبل أن تبلغ الصيدلية دخلت العمارة. ستكون قد موّهت على الذين رأوها مدْبرة

(تحديداً أختها وصبي الصيدلية)، وأيضا أولئك الذين رأوها مُقبلة من المنحى المعاكس واعتقدوا بيقين جازم أنّها تقصد صيدلية أختها.

في الثانية وعشرين دقيقة، أي أربع دقائق قبل انطلاقها، كان الاضطراب قد أخذ من الغربي كلّ مأخذ. كان قد نزل مرّتين لتفقّد الطريق، وتأكدّ من أنّ لا أحد قد أقفل باب العمارة، لأن مجرد انقفال الباب سيهدم كل الترتيب. لن تستطيع الفتاة أن تطرق الباب وستكمل طريقها باتجاه صيدلية أختها إذا ما وجدت الباب مقفلاً. كان كلّ شيء جاهزاً، الباب السفليّ مفتوح وباب الشقة موارب، وحتى الجيران يرقدون في قيلولة الموتى. لكنّه ظلّ مضطرباً لدرجة أنّه نزل إلى الطابق الثاني وظلّ في ظلام السلّم الحالك، على أهبة العودة أو النزول، حتى أحسها تخطو متحسسة دربها فخطا أمامها نحو الشقّة.

حين دخلت الشقة وأغلقت الباب وراءها لم يلتفت إليها، أكمل طريقه باتجاه غرفته، تبعته، وفقط حين صارا معاً داخل الغرفة التفت إليها وابتسم.

كان كلّ شيء معداً بعناية فائقة. لقد اعتنى الغربي بكل التفاصيل. نفّض الأريكة الصغيرة في غرفته. مسح الغبار عن الكرسي والطاولة ونظّف زجاج النافذة بصفحتين من عدد قديم لجريدة فرنسية. سوّى الملاءات فوق السرير. وضع على الطاولة غطاء جديداً كان اشتراه من مدة ورهنَه للنسيان. نظّف الأرض ورشّ القليل من معطّر «موسيو Propre» بأريج الحامض. أخذ من الصالون المشترك، الذي قبِل لمخيتير أن يأوي إليه، جهاز الفي سي دي، وتهوّر وأخذ المزهرية ذات الزهور البلاستيكية. وشغّل

في جهاز الفي سي دي قُرصَ MP3 لعبد الوهاب، ولا يدري أيّ فكرة ساذجة دفعته إلى الحرص على أن تكون الأغنية التي تصادف دخول أمينة هي أغنية «يا ورد مين يشتريك»، وخطرت له بينما يحضّر غرفة العمليات فكرة لا أهمية لها في سيرورة الأحداث: ماذا لو كانت كلمات الأغنية هكذا: يا ورد بلاستيك من يشتريك؟ هل كان سيتغيّر شيء؟

«كان كلّ شيء مرتجلاً. تنقص الأمر عناية أنثوية خالصة.»

كانت تلك أولى الأمور التي عنّت لأمينة عندما دخلت غرفة الغربي. الزربيّة مسرّحة على الأرض بشكل جيد لكنها غير مستقيمة مع أي شيء، ليس ثمّة أيّ مرجع يوضح استقامتها، لا قدم السرير ولا الخطوط الفاصلة بين زلّيج الأرض ولا أيّ شيء. ثمّة تنافر واضح بين ملاءة السرير ولون الزربية، ثمّة آثار بصمات على زجاج النافذة تؤكّد أنّ الذي مسح النافذة انتبه للبقع التي كانت على النافذة ولم ينتبه للبقع التي ستخلفها أصابعه أثناء المسح. المزهرية أكثر إضحاكاً من مهرّج. وما هذه الموسيقى الجنائزية؟ أما كان حرياً به أن يضع موسيقى أكثر مرحاً. يا ورد مين يشتريك؟ أيّ ورد تقصد يا الغربي؟ الورد البلاستيكيّ في المزهرية المضحكة! وهنا عنّت لها فكرة غريبة قد لا تكون لها أيّ أهمية في سيرورة الأحداث: ماذا لو كانت كلمات الأغنية هكذا: يا ورد بلاستيك من يشتريك؟ هل كان سيتغيّر شيء؟

تحدثا سبعاً وعشرين دقيقة وثلاث عشرة ثانية، تخلّلتها فترات صمت تقدّر بتسع عشرة دقيقة وأربعين ثانية، ولا يدري الغربي - وقطعاً هي أيضاً لا تدري- كيف ألفيا أصابع يديهما متشابكةً، ولا كيف صار يحرك أبهمه مداعباً به سبابتها، ولا كيف انتشرت

المداعبة مغطّيةً مساحةَ الذراع بأكملها، ولا كيف صارا إلى تقبيل بعضهما.

قبّلاَ بعضهما كأخ وأخت على الخد، لكنّ يد الغربي المستقرة تماماً عند قمّة مهوى الوادي الذي يشقّ مؤخّرتها، تلك اليد أبداً لم تكن يد أخٍ. تبادلت العيون النّظر وابتسمت، ثمّ هوت الشفتان على الشفتين، قبلّته ببطء وتركيز شديدين، في البداية تبادلا القبل كسمكتين، قبلات بالكاد تتلامس فيها الشفاه، ثمّ انتقلا رويداً إلى قبلة الثعابين. لم يستطع التركيز مع مذاق لسانها، وأدهشته جرأتها. ضمها إليه بعنف. تناهى إلى المشهد وقع خطوات تبتعد، وسعل رجل مريض في إحدى غرف العمارة. عند النّافذة لحسَ قطٌّ فروَ قطٍّ آخر. وفي الشّارع انقسم مجموعة أطفال إلى فريقين، وبدؤوا يضعون الأحجارَ علاماتِ مرمىً ليبدؤوا لعب الكرة. ومالت الشمس قليلاً بحيث لم يلاحظ أحد أنّ ظلّ عمود النّور المقابل كان قد تزحزح بأقل من مليمتر. وابتسمت أمينة. وابتسم الغربي لابتسامتها. حنّت خليّة نائمة إلى التكاثر فتدفّق الأدرينالين وارتفع منسوب التوستوستيرون، وتسارعت نبضات القلب، بحيث غدا يضخّ كميّة كافية ليحفظ انتصاب عضو يحتاج فورا إلى الدّم.

* * *

الساعة الآن تشير إلى الرابعة وثلاث وعشرين دقيقة، الغربي وأمينة يرقدان معاً على السرير. صارَ تغيّرُ موقعِ الشّمس ملحوظاً بشكل كبير لأنّ الظلال غيّرت مواقعها وتزحزح ظلّ عمود النّور المقابل بما يفوق المتر. تناهى وقع الخطوات أكثر من مرّة، وسُمعت قهقهات كثيرة. غفا الرّجل الذي كان يسعل منذ قليل، وشرد ذهنه خلف شجرةٍ كان يستظلّ بها طفلاً. أحدُ القِطّين اختفى

من المشهد. وتشاجر طفلان من فريق واحد بسبب خطأ في التغطية كلّفهما هدفاً. كان القلب قد كفّ عن تزويد العضو النّهم بالدّم، ونام العضو تقريباً، حتى كأن لم يكن يوماً. لكنّ دقات القلب لم تهدأ، ولا نسبة التوتّر خفّت، وشردَ ذهن الغربي خلف نهال...

* * *

نهال. عرفها في الجامعة ولم تترك له غير انطباع مرارة كطعم الرّماد في الفم. على أنّ ذكراها التي تُخلّف لديه ما يشبه طعم الرّماد في الفم، لن تكون وحدها ما يؤرق صاحبنا. لقد بات يعاني مشكلة وجودية خطيرة: لقد سرق أحدهم أحلامه.

من المؤكد أنّ أغلب من يسمعون هذا الكلام لن يفهموا معنى أن يفقد المرء أحلامه. يعتقد أغلبنا أنّ ما من دافع لدى الإنسان ليفقد الأحلام، إما أن نحلم أو لا نحلم، وإمّا أن نحلم وننسى ما حلمنا به، وفي الحالات جميعها، يكون الأمر هو نفسه. حينما يحضر الحلم تحضر العلاقة به، يصير حميمياً، وحينما يغيب تغيب هذه الحميمية. يقرّ الغربي بأنّه يعتنق وجهة النظر نفسها، لكن له علاقة خاصة نوعاً ما بالأحلام التي كان يحلمها... ما كانت له حياة خارج هذه الأحلام، لذا حين ضاعت هذه الأحلام، أو سُرقت تحديداً، ما عادت له حياة... لكن لنرجع صعداً إلى بداية الأمر... إلى حكاية المرأة وطعم الرماد في الفم والأحلام.

* * * * *

عندما كانت نهال تضحك كان ينحفر في خدها الأيمن طيف غمّازة خفيف، لم يسألها الغربي يوماً عن سبب الغمّازة الجميلة، لماذا تظهر في خد ولا تظهر في آخر؟ هل هي أثر جرح قديم؟ لمَ إذن لا يظهر الجرح إلا عندما تضحك؟ كانت أقصى أمانيه [تطرّفاً]

أن يضع إصبعه على تلك الغمّازة، ويتحّسس وجه حبيبته بينما تضحك، لا شيء أروع من أن يلمس المرء وجه امرأة تضحك. لكنّه ما جرؤ يوماً على ذلك، مثلما لم يجرؤ على أن يصرّح لها بشيء. في الواقع، كانت قصّة الغربي ممّا يمكن أن ندعوه قصص حبّ عادية واعتيادية، باختصار ممّا يمكن أن يحدث كلّ يوم، بل ممّا يحدث فعلا كلّ يوم. لكن هل قصص الحب الكبيرة غير القصص الاعتيادية؟ القصص التافهة التي لا يكاد المرء يعيرها انتباهاً لفرط سطحيّتها. ما معنى أن يحبّ أحدهم فتاة، ولا يصارحها بحبه، ثمّ يعيش حياته يفكّر فيها ويتمنى لها السّعادة. إنّ نظير هذه القصص لا يجد له مكاناً حتّى بين سجلاّت الأدب والمرويات سمعيةً كانت أو مرئية، ولو ضربنا صفحاً عن بعض الأعمال الأدبية المعدودة، ليس ثمّة فعلاً ما يقال عن مثل هذه القصص، إذ ليس ثمّة انتحار عاشقين ولا حبّ جارف يبدأ في ماخورٍ، ولا تحدٍ لسلطة عشيرتين متنازعتين. لكن صدقاً من يتحدّثون عادة عن قصص الحبّ الكبرى يغفلون أنّ التافه من القصص قد يكون أعمقها، فلا تهمّ القصّة بقدر ما تهمّ المسارات الداخلية التي يحفرها الحبُّ في نفس المحبِّ. ما قد يبدو تافها وبسيطاً قد يشكّل للمحب عالماً بأكمله، بل قد يشكّل له «العالمَ». وبالفعل ثمّة أشياء بسيطة هي ما كان يجمع الغربي بتلك الفتاة: مرورها من أمام باب كلية الحقوق والاقتصاد وهي تقصد كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، هذا المسار الذي ما زال الغربي يحفظه خطوة خطوة... المسار الذي بناه بنفسه واضطلع به، ربّاه كقطّ أليف ورآه يكبر أمامه ويشتدّ عوده، صار مثل ابنه. كان مساراً ينمو، يزداد كلّ يوم خطوة: راقبها في البداية وهي تمرّ من أمام

باب كليّته وشيّعها حتى باب كليّتها التي تبعد أمتاراً، وراقبها في المرة الثانية وهي تنزل من القنطرة الواقعة فوق سكّة القطار وتسير كأنّما تحلم حتى تبلغ باب كليّته وتكمل مسارها، ثمّ راقبها وهي تنزل من الباص وتشقّ مسارها، تعبر الشارع، ثمّ ترتقي القنطرة وتنزل منها فتسير حالمة إلى أن تبلغ جامعتها... نعم كان ينظرُ ويكتفي بالنظر، لكنّه لم يكن يومئذ يأمل في أكثر من النظر.

ولولا أنّ شرف المهنة يلزمني بأن أقول إنّ صاحبنا لم يكلّم معشوقته ولا مرّة، لكنت اخترت طريقاً أخرى في تشكيل أحداث حكايتنا، كنت سأخلقَ أسباب اللقاء بينهما، وكنت سأقودها إلى فراشه بنفسي، وكانت يدايَ، هاتان اللّتان تخطّان هذه الأسطر، قد سَحَبَتْ الغطاء فوقهما؛ وحتّى إن كانت الفاجعة جزءاً لا مناص عنه من قصص الحبّ، فقد كنت سأرتّب الفاجعة منطقياً بعد اللّقاء، أمّا الكتابة عن حبّ من طرف واحد، فهذا ما لم أكن لأفكّر فيه أو لأنفّذه لو أنّ ناصية الأمر كانت بيدي.

* * *

قُبَيل سفر نهال إلى أمريكا، كان العالم يكمل إحدى دوراته الكبيسة، والخزّ الأخضر غير المعنيّ بمزاج البشر يواصل زحفه على جدران البنايات، وكان النّاس يواصلون سعيهم الحثيث في محوِ وجوههم، بينما المقاهي تواصل استقبال أفواج قتلة الوقت والكلمات المسهّمة. في الوقت الذي يكتب فيه «غونتر غراس» مقالته «ظلم الأقوى» يُحدد فيها موقفه من العدوان الأمريكي على العراق، وأمريكا كانت ماضية في مشاريعها... وما كان الغربي معنياً بكلّ ذلك، كان عالمه كلّه ينحصر في نهال، لا بل ينحصر في يدها فقط. كيف يمكن أن يتعلّق المحبّ بجزء من جسد المحبوب،

يراه فيه بأكمله؟ لا يعرف الغربي إجابةً لهذا السّؤال، لكنّه يذكر بالضّبط متى وقع ما وقع، وأيّ ملابساتٍ احتضنت ذلك؟

كان الوقت عصراً، ولأنّه تأخرّ عن محاضرة أستاذ الفرنسية، ووجد باب القاعة مغلقاً، لم يرغب في أن يُحرج نفسه، فقرر العودة إلى البيت. كان الباص مزدحماً جداً، بالكاد يستطيع المرء التّحرّك بين أجساد الرّكاب، وكان هو قريباً من محصّل التّذاكر، وفجأةً امتدّت يدٌ بين فرجة جسدين وطلبت منه أن يأخذ منها النّقود ويحوّلها إلى تذكرة. وما كان الغربي يحتاج إلى رؤية صاحب اليد ليعرف من هو. إنّها يد نهال. وفي تلك الظهيرة التي استوجبت كلّ أشكال الشّكر ودعوات الفلاح لأستاذ الفرنسية، أدرك صاحبنا أنّه إنّما وُلد فقط لعشق تلك اليد، لقد وجد ديانته وعرف ما هو مقيّض له: أن يقضي حياته في خدمة يدها!

ما عاد معنياً بأيّ شيء، ما عاد يريد غير تلك اليد، ولو قُدِّر له أن يطلب يدَها من والدها، لكان قطعاً أوّل رجلٍ صادقٍ (من النّاحية اللّغوية الصّرف) في طلبه. صار مهووساً بتلك اليد، لا يفعل شيئاً غير التفكير بها، لا بل صار له هوس بجميع الأيادي، صار يتأملّ أيادي النّاس أنّى كانوا، في الباص أثناء ذهابه إلى الجامعة أو عودته منها، في المدرج الجامعي، وساحة الجامعة، التي كان يسمّيها الطلبة، الذين يعرفون أكثر منّا عن الحياة الجامعية، الحرمَ الجامعي، في الشارع والبيت، أنّى كان الغربي لم تعد له من قضيّة غير الأيادي... كان يقارن أيادي النّاس، ويحاول التمييز بينها، وحتّى التخمين، تخمين حياتهم وما يفعلون عن طريق تأملّ أيديهم، أيادي اللصوص غير أيادي الشرفاء، ثمّة أياد فيها استعداد فطري لترتشي، وأياد أخرى ما عرفت غير طريق العفّة، أيادي بعضهم تشعّ

بنور الرضا، وأخرى شاحبة من الحرمان. احتلت الأيادي رويداً رويداً دفاتر المحاضرات، وسيطرت على الهوامش قبل أن تبلغ المركز وتحتلّه فارضةً حضورها الكليّ على الوجود. صار العالم يداً... وكأنّ العالم تصالح مع ذاته، عانق نفسه، برزت له يدٌ وصار بوسعه أن يحضن ذاته لأول مرّة... صار يعرف من هو...

ما عاد للغربي من شغل غير اليد، من فرط ولعه بها صار يبحث عن معانيها، لمَ سُميت اليدُ يداً؟ هذه الكلمة العربية العجيبة ما كان بالإمكان أن تكون غير ما هي عليه. عند كلمة اليد تفقد أطروحة اللّسانيين، الذين يقولون باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، كلَّ دلالتها، اليد وُجدت لتسمّى يداً، كلمة من حرفين لا غير: «يد»، هذه الياء التي تحتمل إمكان أن تطول بطول ساعدٍ، ثمّ هذه الدال المفتوحة ككف مبسوطة. أجل إنّ الناظر إلى كلمة «يد» لن يرى غير «اليد». والغربي يتذكّر جيداً دروس الفلسفة في الثانوي والأستاذ الذي كان التلاميذ يلقّبونه «الإمبراطور»، قضى الإمبراطور ثلاث حصص في شرح نصّ لدو سوسير عن الكلمات والأشياء وعلاقة الدّال بالمدلول. كانت دعوى سوسير قائمة على اعتبار العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية. ليسَ ثمّة من منطق بين الشيء والكلمة التي تدلّ عليه، فلفظ شجرة الذي يقابله في الفرنسية لفظ Arbre لا يملك أيّ خاصية تجعل منه الإمكان الوحيد للتعبير عن هذا الشيء . كان من الممكن أن تسمّى الشجرة في العربية «أربر» وفي الفرنسية Chajara، كما كان بالإمكان أن تسمّى شيئاً آخر، كأن تسمّى ولداً أو علبة أو فنجاناً أو شيئاً أو آخر، كان بالإمكان أن تكون أيّ شيء، فلا شيء في وجود الشجرة يتضمّن كلمة «شجرة». هذه الحروف الأربعة «ش-ج-ر-ة» ليست قطعاً

الشجرة... لكنّ ذلك لم يكن رأي الإمبراطور، لقد حاول الإمبراطور تفصيلَ ضربٍ من الشّعرية التي تسكن العالم. ثمّة التحام وثيق بين الشيء واسمه، حين يرى الإنسان الشيء أوّل مرّة يفكّر فيه وفي هذا التفكير ينبثق الاسم، اللحظة التي تشهد تسمية الشيء هي نفسها اللّحظة التي ينبثق فيها هذا الشيء إلى الوجود، من ثَمّ فإنّ أول من رأى هذا الشيء وفكّر فيه عبر كلمة «شجرة»، قد أعدم كلّ إمكان لتصوّر هذا الشيء إلا بكلمة «شجرة»، وحتى عندما نعرف أنّ ذاك الشيء يسمّى على لسان أقوام آخرين بمسميات أخرى نظيرَ Arbre أو Baum أو isihlahla أو... فإنّ كل تلك الكلمات لا تعدو أن تكون تنويعات على الكلمة الأصل «شجرة». خلَلَ الكلمات وحدها تنبثق الأشياء. لا يدري الغربي لمَ يتذكّر هذه التفاصيل، بينما مُحيَت من ذاكرته عديد التفاصيل الأخرى، التي ربما تكون أهمّ؟ يتذكّر أنّ لا أحد من التلاميذ أخذ اجتهاد الأستاذ مأخذ الجدّ. وكلّ نصيبهم من الدّرس كان لعبةَ تندّر عبيطة ابتكروها، لعبةً قائمة على لخبطة الأسماء والمسميّات. يختارون كلمتين ويبدّلون الدّال والمدلول بينهما: كأن يقولوا الأستاذ مكان الدرس والدرس مكان الأستاذ، ويتواطؤون على عِقاب كل من يخطئ وينطقهما نطقاً في محلّه. كانوا يقولون مثلاً: الدرسُ يلبس اليوم لباساً أنيقا، أو احذر الدّرس قادم؛ بينما يقولون: الأستاذ صعبٌ، أو كم أستاذاً أعددت للامتحان! عجباً كيف ينظر الغربي للإمبراطور نظرة مختلفة جداً اليوم! كان الرّجل عبقرياً، لكن لا كرامة لعبقري في زمنه. يتذكّر الغربي أيضاً من بين ما يتذكّره، كيف بنى الأستاذ الإمبراطور شبكة كاملة من الدلالات اللّغوية كي يبيّن صعوبة الفصل بين الشجرة التي كنّا نطلّ عليها من نافذة القسم

وكلمة «شجرة»، فثمّة سلسلة طويلة من الكلمات والعبارات المشتقّة من كلمة «شجرة» والتي تعود بشكل أو بآخر إلى الشجرة ككيان موجود وفعلي، أقلّها فعل «تشاجر» الذي يفيد التشابك والتصارع بالأيدي أو الأفكار مثلما تتشابك غصون الأشجار. أيّ معان تحملها كلمة يد وتحيل على اليد؟

عندما كان الغربي يدرس في الثانوية، كان مقرّر الفلسفة يبدأ عادة بتجلية المعاني اللّغوية لموضوع الدرس، ويذكر أنّ الدّرس كان يبدأ دوماً بالرجوع إلى مصدرين: معجم لالاند الفرنسي، ولسان العرب. وفي الواقع لم يكن الغربي يعرف وقتذاك أنّ هذه العبارة «لسان العرب»، التي يشير إليها الأساتذة، اختزالاً، عادة بـ«اللّسان»، تشير إلى معجم ابن منظور، فهو لم يعرف ابن منظور ولم ينظر يوماً في معجم عدا نسخة مهترئة من منجد **الطلاّب**، ورثها عن أحد أفراد العائلة وكان يعود لها من حين إلى آخر، لمّا كان يُطلب منه البحث عن معنى كلمة من الكلمات. كان لكلمة «لسان العرب» وقع عجيب في نفسه، إذ كان يتخيّل دائماً أنّ الأمر يتعلّق بلسان عملاق هو جماع ألسنة العرب جميعهم، بالطبع لم يكن الغربي ساذجاً لدرجة أن يعتقد في هذا الأمر، لكنّه الخيال، وماذا نملك غير الانسياق إليه؟ حصلَ الغربي إذن على نسخة من لسان العرب، وقع في يديه «اللّسان العملاق»، واللّسان العملاق كان نسخة من طبعة «دار صادر» المجلّدة. كان الكتاب في خمسة عشر جزءاً، لكنّ الجزء الرابع كان ناقصاً. غير أنّ الغربي لم يأبه للأمر وهو ينقد الكتبيَّ الثمن الذي اتفقا عليه. ما كان يهمّه فعلا هو الجزء الأخير، حيث كانت مادة يد، ولو أنّ الكتبيّ، الذي سمح له بتصفح الكتاب نصف ساعة قبل شرائه، قبِلَ أن يبيعه الجزء الأخير

من الكتاب فقط، لاشتراه الغربي بسرور، لكنّ الكتبي، رفض بيع أجزاء الكتاب منفصلة.

ولو أمكننا الدخول إلى رأس الغربي ساعة مطالعته مادة «يد» في لسان العرب، وأطللنا من عينيه على الصفحات، لكنّا بلا شك رأينا الأسطر التي سأكتبها فيما يلي بين «. . .» ولسمعنا العبارات بين (. . .) تتردّد في ذهنه وهو يركض بعينيه بين الأسطر. . . وهذا المقطع، وإن كان باعثاً على الضّجر، من الضروري أن يُقرأ قراءة لا تقلّ تمعّناً عن المقاطع السّابقة، ولا يمكن أن يُمرّ عليه بنظرة مسحيّة سريعة.

جاء في لسان العرب:

«اليَدُ: الكَفُّ (تحصيل حاصل) وقال أَبو إِسحق: اليَدُ من أَطْراف الأَصابع إلى الكف، وهي أُنثى محذوفة اللام (لا يمكن أن تكون اليد إلا أنثى)، وزنها فَعْل يَدْيٌ (تباً، اليد إذن لا تشبه في الأصل هذا الشكل «يـــد»، كما تصوّرتها)، فحُذِفت اليَاءُ تخفيفاً فاعْتَقَبت حركةُ اللاّم على الدال (حسناً فعلوا)، والنسَبُ إِليه على مذهب سيبويه يَدَوِيٌّ، والأَخفش يخالفه فيقول: يَدِيٌّ كَنَدِيٍّ، والجمع أَيْدٍ، على ما يغلب في جمع فَعْلٍ في أَدْنى العَدَد. الجوهريّ: اليَدُ أَصلها يَدْيٌ على فَعْل، ساكنة العين، لأَن جمعها أَيْدٍ ويُدِيٌّ، وهذا جمع فَعْلٍ مثل فَلْسٍ وأَفْلُسٍ وفُلُوسٍ، ولا يجمع فَعَلٌ على أَفْعُل إِلا في حروف يسيرة معدودة مثل زَمَنٍ وأَزْمُنٍ وجَبَلٍ وأَجْبُلٍ وعصاً وأَعْصٍ، وقد جمعت الأَيْدي في الشعر على أَيادٍ؛ قال جندل بن المثنى الطُّهَوِيّ: كأَنه،

بالصَّحْصَحانِ الأَنْجَلِ، قُطْنٌ سُخامٌ بأَيادي غُزَّلِ، وهو جمع الجمع مثل أَكْرُعٍ وأَكارِعَ (كلام لا معنى له بالنّسبة إلي)؛ وقال ابن جني: أَكثر ما تستعمل الأَيادي في النِّعم لا في الأَعْضاء (اليد نعمة، ونِعم باللّه!). أَبو الهيثم: اليَدُ اسم على حرفين (تماماً)، . . . . ، قال ابن بري: والدليل على أَنَّ لام يَدٍ ياء قولهم يَدَيْتُ إِليه يَداً (يديتُ، يا الله! فعل مشتق من اليد، اليد تَيِد. . . جميل) . . . وذو اليَدَيْن: رجل من الصحابة يقال سمي بذلك لأَنه كان يَعمل بيديه جميعاً (كلّنا ذاك الرّجل). . . ورجل مَيْدِيٌّ أَي مقطوع اليد من أَصلها. واليُداء: وجع اليد. اليزيدي: يَدِيَ فلان من يَدِه أَي ذَهَبَتْ يدُه ويَبِسَتْ. يقال: ما له يَدِيَ من يَده، وهو دعاء عليه، كما يقال تَرِبَتْ يَداه (بمعنى أنّ اليد قد تنوب عن سائر البدن). . . الجوهريّ: يَدَيْتُ الرجلَ أَصَبْتُ يَده فهو مَيْدِيٌّ، فإِن أَردت أَنك اتخذت عنده يَداً قلت أَيْدَيْت عنده يداً، فأَنا مُودٍ، وهو مُودًى إِليه، ويَدَيْتُ لغة؛ قال بعض بني أَسد: يَدَيْتُ على ابنِ حَسْحاسِ بنِ وَهْبٍ، بأَسْفَلِ ذِي الجِداةِ، يَدَ الكَريم قال شمر: يَدَيْتُ اتخذت عنده يَداً؛ وأَنشد لابن أَحمر: يَدٌّ ما قد يَدَيْتُ على سُكَينٍ وعَبْدِ اللهِ، إِذْ نَهِشَ الكُفُوفُ قال: يَدَيْت اتخذت عنده يَداً. (اليد أساس العلاقة بالآخرين) وتقول إِذا وقَع الظَّبْيُ في الحِبالةِ: أَمَيْدِيٌّ أَم مَرْجُولٌ أَي أَوْقَعَتْ يدهُ في الحِبالةِ أَم رِجْلُه؟ (أنا إذن رجلٌ مَيْديّ، لكنّ يدي ليست هي من وقع، وإنّما وقعت كليّ، وقعت بسبب يدٍ) [عند هذا الحدّ لم يعد العربي

يستطيع التركيز أكثر، فمرّ على بعض الأسطر سريعاً، وكلّ ما كان يعلق بناظره كلماتٌ نظيرَ العنس/ كفّ/ بيعة/ الضرورة/ بعظام/ رجلاً... واستمرّ يقرأ...] يَدُها ما عَلا عن كَبِدِها، وقال أَبو حنيفة: يَدُ القَوْسِ السِّيةُ اليُمْنى؛ يرويه عن أَبي زياد الكلابي. ويَدُ السيفِ: مَقْبِضُه على التمثيل: ويَدُ الرَّحَى: العُود الذي يَقْبِض عليه الطَّاحِنُ (لكلّ شيء يد، اليد جوهر الأشياء). واليَدُ: النِّعْمةُ والإِحْسانُ تَصْطَنِعُه والمِنَّةُ والصَّنِيعَةُ، وإِنما سميت يداً لأَنها إِنما تكون بالإِعْطاء والإِعْطاءُ إِنالةٌ باليد، والجمع أَيدٍ، وأَيادٍ جمع الجمع، كما تقدم في العُضْوِ، ويُدِيٌّ ويَدِيٌّ في النعمة خاصّة (اليد عضو العطاء، اليد التي لا تعطي ليست يداً)... ويادَيْتُ فلاناً: جازَيْتُه يداً بِيَدٍ، وأَعطيته مُياداةً أَي من يدِي إِلى يده (كنت سأقول يَادَيْتُه، أي أمسكنا أيدي بعضنا).

قلّب الغربي الصّفحات، كان ثمّة المزيد والمزيد من المعاني، لكنّه ما كان يستطيع المضيّ أكثر، لم تعد اللّعبة تروقه فعلاً. فالحصيلة التي خرج بها من لسان العرب بئيسة حقّاً، ثمّة برودة لا يخطئها الجلدُ في عباراته. كيف تغيب معاني الحرارة والدفء والحبّ؟ إنّه معجم وضيع، مثل كلّ المعاجم، بليد، ينسى القيمة الفعلية للكلمات، قيمتها كأشياء محسوسة... ثمّ ما هذه الفوضى الغريبة في الكتابة؟ أما كان حريّاً به وضع تصنيف واضح للمعاني؟ كيف تختلط المعاني المجازية مع الدلالات اللّغوية والأصول؟

في تلك اللّيلة، التي سنسميها ليلة المعجم، حَلم الغربي، بأوّل

حلم في سلسلة الأحلام التي صنعت عالمه. ذاك العالم نفسه الذي أضاعه عندما فقد قدرته على الحلم. كانت ليلة أربعاء، ولا يذكر من لحظة استسلامه للنوم، غيرَ ضوءٍ خفيفٍ يتسلّل من الشارع عبر خصاص النافذة وبقايا صوت المذياع في أذنه، حيث كانت فتاة تحادث المُنشّط المسمّى نور الدّين عن برودة تصرفات صديقها تجاهها...

كان الغربي جالساً داخل مقصورة في قطار، كان الجو ماطراً في الخارج وخلَل خصاص النافذة كانت تتسلّل أضواءُ الطّريق. أمامه جلست فتاتان تثرثران، كانت إحداهما تحكي للأخرى عن تصرفات خطيبها الباردة تجاهها، وخطيبها كان يدعى نور الدين... عند نقطة ما من هذا الحلم، توقف القطار، وفتحَ البابَ حوذيٌ، عندما ترجّل الغربي من العربة انتبه إلى أنّه لم يكن في قطار وإنّما كان في عربة تجرّها أربعة خيول، مثلما أنّ الفتاتين لم تكونا سوى طيفَيْ حلم شاهدهما بينما كان غافياً في العربة. قال له رجل كان بانتظاره، أسرع يا دكتور إنهم بانتظارك، لم تبدُ على الغربي دهشة، وكأنّما كان على علم بوضعيته، لكنّه فقط انتبه إلى حقيبته الطبيّة وملابسه السّوداء من طراز بدلات القرن التاسع عشر. ولم يكن قد انتبه إلى ملابسه قبلئذ... في الغرفة حيث دخل، كان ثمّة سرير أبيض. انصرف الجميع، وكأنّما تبخّروا فجأة، وظلّ وحده في الغرفة. حينئذ اقترب ببطء نحو السرير وأزاح الغطاء، لم يكن في السرير سوى يدٍ ممدّدة، يد مفصولة عن جسدها. لكنّ الأمر لم يبدُ مرعباً. كانت اليد المبتورة تبدو حيّة ولو

أنّها تعاني من اصفرارٍ خفيفٍ. سارعَ الغربي إلى حقيبته، وفتحها، ثمّ أخرج منها قلماً ومحبرة. وبهدوء وتركيز شديدين أخذ يخطّ على اليد كاتباً كلمة «يد».

اِستل الغربي نفسه من حلمه هذا، وكانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف اللّيل، بقرارٍ غريبٍ. لقد ظلّ برهة يتنفّس بعمق فوق سريره، رانياً إلى الصورة الملصقة قبالة حائطه، صورة فريدي مِركوري عاري الصدر يمسك الميكروفون في حفلة ويمبلي سنة ١٩٨٦، ثمّ قام واتّجه إلى المنضدة حيث كان قد وضع مجلّد «لسان العرب». وعلى تلك الصفحات نفسها، حيث كان يقرأ معاني اليد، أخذ يمسح بالمبيِّضِ العبارات التي لا تروقه ويضع بدلها معانٍ ودلالات جديدة. كانت الأسطر تمّحي تباعاً لتعوّضها أسطر جديدة:

«اليَدُ: الكَفُّ وقال أَبو إِسحق -وأجمع معه العلماء-: اليَدُ من أَطْراف الأَصابع إلى الكف، وهي أُنثى كاملةٌ، لا يجوز فيها التّذكير، وهي من الكلمات القليلة التي لم يتغيّر أصل كتابتها، فلم يُزد إليها حرفٌ ولا نَقُص، ولا يجوز أن تكتب إلاّ على هذا النّحو «يـــد»، مع استحسان أن تُمَطَّ الياءُ. والجمع أَيْدٍ، وثمّة من يجمعها على يُدِيٍّ أو أيادٍ، وإن كانت لا تحتاج جمعاً، فيجوز أن يُقال يدٌ جمعاً وإفراداً، كما لا تحتاج اليد إلى أداة تعريفٍ، فهي معرّفةٌ بنفسها «كاملة مكمولة». ولليد استعمالاتٌ عديدةٌ غير ما هو حسيٌّ يشار به إلى العضو، إذ تستعمل للعطاء والنّعم والحبّ والرّفق واللّطف والوداعة والرّقة، وبالمختصر اليد في جهة الإيجاب من الأخلاقِ، بمعنى قد تستعملُ اليدُ إشارةً إلى كلّ خُلقٍ كريمٍ أو خِلقة

حسنة. والغالب استعمال اليد في الأخلاق والنّعَم، أكثر من استعمالها في الأعضاء، وهذا ما يؤيّدنا فيه ابن جنيّ. ومن اليد فِعلُ: يديتُ الذي قد تستعمل فعلاً وانفعالاً، بمعنى يديتُ إذا أكرمت ورفقت وعطفت، وأيضاً يديت إذا أصابني رفقٌ أو حبٌّ أو فتنة. ومن عَشِقَ وعُشِقَ سميَّ ذا اليَدَيْن، ومن كان حظّه أحدهما دون الآخر، سميّ ذا اليد. ولا يجوز اشتقاق اسم من اليد للدّلالة على من كان دون يد، وفي هذا أخطأ المتقدّمون إذ كانوا يقولون: رجل مَيْدِيٌّ أي مقطوع اليد من أَصلها. وإنّما ينبغي أن يُضاف نعتٌ إلى اليد للدّلالة على مثل ذلك، كأن يُقال: مقطوع اليد، أو منزوعها أو محرومٌ من نعمة اليد. كما لا تُشتقّ الأمراضُ والعلل والنواقص من اليد، فيُقال مرَض اليدِ ووجعُها وألمُها ولا يُقال البتّة يُداء. واليد قد تنوب عن سائر البدن. ولا تستعمل اليدُ في الدّعاء إلا خيراً. ويقال إذا وقَع الظَّبْيُ في الشّرك: أَمَيْدِيٌّ أَم مَرْجُولٌ أي: أَوْقَعَتْ يدهُ في الشّرك أَم رِجْلُه؟ أمّا من وقع في الحبّ فهو ميديٌّ بالضّرورة. ولكلّ موجود يدٌ، أكان حيوانا أم نباتا أم جماداً، فيقال يد الإنسان، ويد الحيوان لقوائمه، وكذا يد السّيف لمقبضه ويد الرّحى للعود الذي تُقبض منه. والمياداةُ التقاء اليدين حباً أو صداقة.

دوّن الغربي حلمه، حلمَ اليد البتراء. كان يشعر في قرارة نفسه أنّ في هذا الحلم إشارة، وأنّه لا شكّ بدايةٌ لشيء مّا، لحدث رائع يشفّ عنه الأفق. وكان تدوين الحلم بداية لعادة جديدة ستنظم إيقاع حياته، هي عادة تدوين الأحلام. اشترى مذكرة خاصة عمّدها باسم «دريمي»، وبدأ يدون كلّ يوم الأحلام التي تستمر في ذهنه واضحة

جليّة وكأنّما ما زال يراها. يضع لكلّ حلم تاريخاً واسماً مفترضاً، ويتركُ «دريمي» تسلك درب امتلائها. وكانت طريقه واضحة في الذهن، سيستمر في الأحلام، وفي السعادة التي تمنحها هذه الأحلام، وسيدون ويدون إلى أن تمتلئ «دريمي» فيشتري «دريمي تو»، ثم «دريمي ثري». وبما أنّ اليد لم تخطئ طريقها إلى الحلم يوماً، فإنّ العناوين التي تناسلت على صفحات «دريمي» كانت كلها تشمل كلمة يد: حلم يد الشجرة، حلم اليد الثالثة، حلم المصافحة بيد القلب. . . . حلم يدِه.

على أنّه لا ينبغي الاعتقاد في أنّ صاحبنا كان مجتثاً تماماً من الحياة. لقد كان يعيش حياة عادية لا تثير شكوك أحد، ولولا تعثر خفيف في المشية وتشقُّق بسيط أسفل العين بسبب الاستيقاظ المتكرر ليلاً، لقُلنا إنّه لا يعاني أي اضطراب، وإنّ حياته تسير على نفس الخط الذي تسير عليه حياتهم جميعاً. لقد ظلّ مواظباً على العادات البسيطة التي تشكلّ الأبجدية الأولى لكل إنسان بالغ: الاستيقاظ والنوم والأكل والتنفس بانتظام والشرود أحيانا وشرب القهوة؛ حافظ أيضا على علاقته بأمينة ولو أنها صارت تثقل عليه كثيراً وتصيبه بإرهاق شديد.

* * *

ظلت أمينة تزوره مرتين على الأقل كلَّ أسبوع، يفعلان ما يفعلانه، ولا يبقى في الأخير غير شيئين لا ينساهما الغربي. فأوّلاً رغم محاولاته المتكررة يعجز عن النهوض مباشرة بعد أدائه الجنسي، فيبقى مضطجِعاً بقربها فترة كافية ليتجمّد العرق على جسده ويتشرّب بدنه البرد، فتزعجه آلام خفيفة طيلة الأسبوع، لكنه لا يعتبرها أمراً ذا شأن، هي فقط تذكره بأنّ له جسداً خارج عالم

«دريمي»؛ ثانياً لا يمكن أن يغفل تفصيلاً هاماً، هو أنّه كان دوماً عقب خروج أمينة، يغسل أسنانه فترة طويلة بالفرشاة والمعجون، ويرطّب حلقه بمعطر من مستلزمات أناقة عادل. دون طقس غسل الفم هذا لا يشعر الغربي أبداً بأنّه تطهّر. لم يكن يأنف من أمينة، وبصدق لولا حبّه لنهال، لكان من الممكن أن يتزوّجها دون أن يتردد لحظة. لكنّ شعوراً غريباً يتلبّسه ويجعله يعتقد أنّه مدنّس، أنّ فمه متسخ، وأنّه لن يعود الغربي النقيّ، غربي نهال إلا بعد أن يغسل فمه جيداً.

ثمّة عزاء آخر وجده الغربي. لقد ظلّ مرتبطاً بالعالم الذي يسبح فيه أقرانه، عالم الإنترنيت، كان تسليته حقيقية بالنسبة له، خصوصاً وأنّه سيفضي به إلى استعادة طريق نهال.

* * *

رغم أنّ اسم الغربي لم يشفع له جغرافياً، إلا أنّه استفاد كأيّ واحد من أبناء جيله من انفتاح العالم على نفسه. لقد شهد الغربي في أقل من عشر سنوات تسارعاً تكنولوجياً قد يساوي ما شهده أحد أجداده في مائة سنة. ولن يماري الغربي أو أي واحد من مجايليه في كون الاختراع الذي كان له الأثر الأبلغ في نفسه هو الإنترنيت.

اِشترى والد الغربي أوّل تلفاز سنة ١٩٨٠، السنة نفسها التي شهدت ميلاد الغربي. تلفاز بإطار خشبيّ متين ماركة فيليبس الهولنديّة المشهود لها بالصلابة. وكان الغربي سيعيش العالم بطيئاً وسعيداً لو قُيضّ له أن يظل من عبيد جهاز العجب. ما يشكّل ثغرة من ثغرات ذاكرة الغربي الكثيرة هو عدم معايشته لحظةَ دخول التلفزيون إلى البيت، فعكس الكثير من أقرانه الذين خبِروا فرحة دخول الجهاز إلى بيوتهم، كان تلفزيون آل بنعمرو دائما هناك.

جباراً ومتسلطاً وسيّداً مطلقاً لأثاث البيت وباسطاً احترامه على جميع أفراد الأسرة. كان المعبودُ المكعّب، يحتل مكانه الذي لا يفارقه في بيت الجلوس. لقد كبر الغربي والجهاز معاً. وشهد صاحبنا ارتقاء الحياة البيولوجية للجهاز مذ كان لا يعيش سوى سبع ساعات في اليوم من الخامسة مساء إلى منتصف الليل. إن شعرية استعارةَ الحياة التي لن يوظفها الغربي أبداً في حديث عابر عن التلفاز ليست قطعا مجرد تعبير مجازي ارتضاه كاتب هذه السّطور. فالغربي كان يعتقد بالفعل أنّ التلفاز يحيا يومياً سبع ساعات، يولد مع الخامسة مساءً وتُتلَى آياتٌ بيّنات من الذكر الحكيم ترحيباً بقدومه إلى العالم، قدوماً سيعيش فيه سبع ساعات يَخبر فيها تجاربَ لا حصر لها من طفولةِ الرّسوم المتحركة حتّى شيخوخة الخَرف التي سيتابع فيها أخبارَ الملك ووزير الداخلية، ليسلّم جسده للمقرئ الذي يشيّعه إلى مثواه الأخير بعد أن يُحيّا تحيةً وطنية تليق بحياته القصيرة الحافلة. سيشهد الغربي تمدّد الحياة المبتسرة للجهاز، حتى تصير إلى تسع ساعات فاثنتي عشرة ساعةً (نصفَ يوم)، حتى يبلغ يوماً كاملاً. ولن ينسى بالطبع أهمّ ما وقع للتلفاز قيد حياته، نقصدُ تجربةَ الانشطار، حين صارت له حياةٌ مزدوجة، حياة على القناة الأولى وحياة جديدة أكثر شباباً وتنوعاً على القناة الثانية. بدأت القناة الثانية بعرض مشفّر تتخلّلُه ساعاتٌ بسيطة، كانت آلهة البثّ ترضى فيها عن رعيّتها من أشرفهم حتى أدناهم من مشاركي الخنافسِ والبقِّ مرتبتها. ستكون ساعاتُ البثّ المجاني البخيلة ثرية بما يكفي لتضمَ فقرةً للأطفال تُبثّ مباشرة بعد موعد الخروج من المدرسة.. وباستثناء تلك الفترات الحميمية القليلة لا يذكر الغربي أبداً شيئاً اسمه الطفولة: ومن تلك اللحظات البسيطة

يذكر تحديدا فترة بثّ الحكايات العالمية، تلك التي ستُعرِّفه على أصدقائه من العالم كله، من بي كويك صاحب الأوراق إلى صديقه الأعز يونيتي الذي سُرق ظلّه. . .

لقد سرقت الحكايا على التلفاز طفولة الكثيرين من مُربّي الحمام ودود القزّ. بيد أن الغربي لم يفقد طفولته إلا حين بات العرض التلفزي مستمراً ومتاحاً أنّى كان. . . ثمّة فجوة بين العرض المقتر للبرامج على القناتين وظهور الإنترنيت. . ويجزم الغربي أن طفولته ضاعت هناك. كانت تمّحي وتنقضي حين كان المتسلقون فوق الأسطح يركّبون صحون استقبال الإرسال، لكنّ شهادةَ وفاتها الفعليّة ستكتب حين سيُخلي ركضُ الطفولة واندفاعُها الأهوج من المدرسة إلى البيت للّحاق بحصة الأطفال التلفزية، ومن البيت إلى الشارع لتقليد أبطال الحصص الصباحية، مكانهُما لزغب الفراشات الخفيف على العانات وتحت الآباط والسعي المحموم وراء الأنثى. . سيخلي مكانه للحفرة التي يحسّها الغربي في حياته، حيث كان هناك يعيش ويتجوّل بين أناس، لكنّه لا يملك أيّ مدونة شخصية عن تلك الفترة، وكأنّه لا يذكر منها شيئاً، وكأنّما هي هوة بين زمنين. لم يستعد الغربي مدونة حياته حتّى بدأت تظهر فضاءات الإنترنيت.

* * *

في اليوم السابع من نوفمبر سنة ٢٠٠٠ الذي يصادف يوم ثلاثاء، جلس إلى طاولة مقهى الصّخور رجلان متوسطا القامة والسّن، لكن بعيدي الطموح. طلبا معاً من النّادل قهوةً سوداءَ، أخرج أحدهما علبة سَكّارين ووضع منها في قهوته بينما وضع الآخر قطعة سكّر ونصفاً. على الطاولة التي كانت خلفهما مباشرة

جلس رجل خمسينيّ (يمكن أن نسميه الحاج) يفوقهما طموحاً وبعد نظر.

فتح أحد الرجلين ملفاً أزرق وأخرج ورقةً بيضاء مكتوبة بقلم حبر جافّ أسود. وشرع يبسط أمام جليسِه الخطوات العملية التي عليهما القيام بها لإتمام تصاريح الحصول على إذن فتح محل سيسمع باسمه الرجل الجالس خلفهما للمرة الأولى في حياته: محل الإنترنيت. يحتاجان بالضبط ستة أشهر لإكمال كل التعاملات مع شركة الاتصال وغيرها. المشروع لم يظهر بعد له مثيل في منطقتهما، وصافي الربح اليومي يقارب ألفَ درهم.

بالطبع التقط الجالسُ خلفَهما كلَّ ما قالاه، لكنّه بخبرته الطويلة في مجال الأعمال المشابهة كان يعرف طُرقاً مختصرة لاستحصال كلّ ما يحتاجه من وثائق.

بعد أسبوع بالضبط تم افتتاح أوّلِ فضاء إنترنيت في حيِّ الغربي. بالطبع لن يعرف الغربي قطّ ما جرى بين الرّجال الثلاثة في مقهى الصخور. لكن الأمرَ سيمنحه حَظَّ ولوج زمن الإنترنيت قبل الموعد الذي كان مُقرراً في البداية بستّة أشهرٍ.

حدّد الحاج في البداية ثمن ولوج الإنترنيت في خمسة عشر درهماً للساعة، وهو ما كان يعدّ ثروة بالنسبة لتلاميذ ذاك الزّمن. ولم تمض أسابيع حتّى كانت حقنة الإنترنيت قد سرت في شرايين الغربي. كان عليه أن يتدبّر بأيّ شكلٍ خمسةَ عشر درهماً أسبوعياً ليذهب ساعةً إلى الإنترنيت. كانت أقصر ساعة في التاريخ، لكنّها كانت تكفي الغربي مع ذلك ليقوم بما صار يقوم به في ما بعد في يوم بأكمله.

لا يستطيع الغربي أن يحدّد تاريخاً مفصّلا لما جرى، فالانتقال

كان من السّلاسة بحيث أعدمَ كلَّ إمكانٍ للإحساس بالتدّرج من حال إلى حال. بالطّبع تعرِضُ له أحياناً كلمات لو انتظمت لاستطاعت تشكيل ما يمكن أن يعتبره تاريخاً شخصيّاً للإنترنيت. مَثلُ تلك الكلمات: كاراميل، هوتميل، ياهو، مسنجر، وصولاً إلى **الفيسبوك**... مضافاً إليها كلمات أخرى لم يستعملها يوماً ولا حتى فكّر فيها...

نبلغ الآن إلى نقطة مفصلية وغاية في الأهميّة بالنّسبة لحكايتنا، سنفترض أنّ اليوم يوم ثلاثاء، لأنّ الغربي في الحقيقية لم يتمكّن من تحديد اليوم الذي تلقى فيه هذه الرّسالة على الهوتميل: «(...) يريد إضافتك إلى لائحة أصدقائه على الفيسبوك». لم يكن يجمع الغربي بصاحب الدعوة أيّ علاقة، لكنّه لا يدري لمَ ضغط على الرّابط. وكان اليوم الذي افترضنا أنّه يوم ثلاثاء يوماً حاراً يبعث على الملل، ولمشكلة في النّظام توقّفَ العملُ بالمصلحة فترة زمنيةً، ولأنّ الغربي كان مشغولاً بنفسه عن الآخرين، فقد أخذ وقتَه الكافي لملء استمارة التسجيل في الفيسبوك. وانفتح عالم الفيسبوك. ما كان يقترحه الاكتشاف الجديد، -والذي سيدرك الغربي فيما بعد أنّه لم يكن جديداً في شيء، إذ إنّ نصف زملائه يمتلكون حسابات فيه- قلنا ما كان يقترحه الاكتشاف الجديد هو الارتباط افتراضياً بأصدقاء ما عاد الارتباط الواقعي بهم ممكناً؛ إضافة إلى تشكيلة من التطبيقات المسلية الغبيّة، جرّب أحدها في الحال، وكان عبارةً عن مجموعة أسئلة تجيب عنها فيقرّر الحاسوب أيّ مدينة تصلح أن تعيش فيها، واختار له الحاسوب مدينة أمستردام؛ والأهمّ من ذلك كلّه كان الموقع يقترح اقتفاءَ آثار من رحلوا أو ضاعوا في زحمة الحياة، كان يمنح إمكان الالتقاء بالأصدقاء القدامى وزملاء

الدراسة والعائلة، كان يمنح نافذة للإطلال على نهال. كان الغربي يعرف التّهجئة اللاتينية الصحيحة لاسمها الكامل إذ سبق أن رآهُ معلّقاً ضمن لائحة طلبة فصلها. كتب الاسمَ في خانة البحث ثمّ ضغط زرّ الدخول. لم تُظهر الشاشة سوى نتيجتين، ثمّة شخصان فقط يحملان الاسمَ. لم يكن أيّ منهما يضع صورة شخصية. إحداهما كانت تضع صورة قطط صغيرة، والأخرى تضع صورة المغنية الأمريكية نورا جونز. طلبَ صداقتهما معاً وانتظر. أتاه ردّ صاحبة القطط سريعاً، بيد أنّ النّتيجة كانت مخيّبة، لا شيء يدلّ على أنّها صاحبته. لا بل إنّ كلّ الأمارات تشير إلى استحالة ذلك. مرّت أيّامٌ ولم يتلقَّ ردّاً من «نورا جونز». ولن يتلقّى ذلك الرّد قطّ. لكنّه على الرّغم من ذلك ظلّ يطلّ على صفحتها كلّما فتح الموقع الأزرق.

ثم نصلُ إلى يوم الأربعاء الرابع عشر من لحظة طلب صداقة صاحبة صورة نورا جونز، ولنذكر هنا عرضاً أنّ السيّد الغربي بنعمرو كان قد أدمن طيلة تلك الفترة الاستماعَ إلى أغنية نورا جونز Don't know why. في ذلك اليوم حدث أمرٌ معجِزٌ، لقد رآها، رأى اليد. بالطّبع لم تكن نهال قد قبلت صداقته، لكنّها كانت قد غيّرت صورتها، بدل صورة نورة جونز وضعت صورة يدها، تلك اليد التي يستطيع الغربي أن يميّزها بين أيادي بنات حوّاء منذ بدء الخليقة. كانت الصورة واضحةً، هي يدها، يد معبودته الواقفة على ضفّة، تشير إلى الضّفة الأخرى للنّهر، وتضع سواراً فضيّاً. لماذا وضعت صورة يدها تحديداً؟ أفي الأمر إشارة؟

*

. . . أنا جالسٌ إلى طاولة، أمامي بوستر ملوّن، عليه صورة طفلة وقَصْرٌ به أعلام زرقاء. وضعت يدي على البوستر فتحسّست خطوطاً بارزة، سرعان ما اكتشفت أنّها ليست خطوطاً مرسومة كما اعتقدت وإنّما هي أخاديد أُحدِثَت بفعل مشرط. نشبت أظافري بين حَدَّي أحد الخطوط ووسعته فانشقّ البوستر وانفتح، أدركت آنذاك أنّ البوستر من قبيل الصور الثلاثية الأبعاد التي يلهو بها الأطفال، فيحوّلونها إلى بناياتٍ وأشكال هندسية. عندما صار البوستر قائماً على الطاولة تحوّل إلى قلعة عليها أعلام زرقاء، لكن الطّفلة اختفت. دقّقت النظر فأدركت أنّ الفتاة كانت هناك، لكنّي لم أستطع تحديد مكانها. عند كلّ زاوية كانت توجد شجرة، ملايين الأشجار بثمار ناضجة، لكن كلّما هممت بلمس إحدى الثمار تكاتفت الأشجار وتداخلت أغصانها. استطعتُ أخيراً تمييز شجرة منفردة، كانت باقي الأشجار تحيط بها كالوصيفات، الشجرة كان اسمها نهال، كان لها غصن واحد، لكنّه كان غصنا جميلاً، مددت يدي، لكنّ يداً سبقتني. . . هل بكيت؟ ما إن لمست اليدُ الغصنَ حتّى تفرّعت من الشجرة عشراتُ الأغصان، وتحول كلّ غصن إلى يدٍ. . . كان هناك من الأيادي ما يكفي الجميع. . . قالت لي الشجرة: كلّ أغصاني أيادٍ، فخُذ أيّ يدٍ شئت، كلّ الأيادي لك. . .

وجد الغربي إيقاعَ حياةٍ مبهجاً: ١- يتابع الملِكة عن بعد، ينتشي بصوَرها ويحيك من الصور وضعيات ويلفي نفسه منخرطاً في تلك الوضعيات، ثمّ تصير الوضعيات أحلاماً، والأحلام أياديَ تمتدّ وتمتدّ حتّى تغطّي العالم. ٢- تأتي أمينة مرّتين في الأسبوع يفعلان ما يفعلانه، تتصرّف برومانسيّة بالغة وتلهب سريره، وتغفو حالمة بجانبه بينما ينامُ العضو الذي تراخت خلاياه، ويسرح هو خلف نهال، دون أن يشعر بأيّ عقدة ذنب ٣- يقضي يومه مراقباً تفاصيل حياة الآخرين عن بعد، خفيفاً على العالم، غير منخرط فيه ٤- يحافظ بصرامة على عاداته في العمل وقواعد عيشه مع عاديل والمختار ٥- يواصل التدوين الدؤوب في دريمي.

*

مقتطف من دريمي ١ : حُلم ليلة ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩

الجو باكر، [الوقت يحدّده الجوّ]، أمّي ونساء الحيّ يحملن صُرراً على أكتافهنّ، نحن الأطفال نمسك بتلابيبهنّ، ذاهباتٌ هنّ إلى ضريح الوليّ الصّالح سيدي بنعاشير يسألنَهُ الذريّة الصّالحة، كأنّهن لم ينتبهن إلى أنّ الذريّة تمسك بتلابيبهنّ، أرى شجرةً عاريةً وطائرَ بوم جميلاً. عبَر الأطفالُ وحدهم الجسرَ، بينما ظلّت النّساء على الجسر يراقبن الجهة المقابلة، وظللت أنا مع النّساء على الجسر، ونظرت إلى الجهة المقابلة فرأيت نفسي أسبق الأطفالَ، أومأت إلى النّساء كي ينظرن إلى البيت عند الضّفة الأخرى، لكنّ أعينهن كانت بيضاء. لم أشعر بالخوف.

عاودت النظر إلى الجهة المقابلة، كان ثمّة بيتٌ بنافذة ولا باب له، نظرت من النّافذة فرأيت مقام سيدي بنعاشير، كنتُ نائماً داخل المقام، عليّ غطاءٌ أزرق، وبجانبي ترقد سارة «مرسول الحبّ»، ومن تحت الغطاء كنت أخرج يدي وأمسك بيد أمينة. انتبهت إلى أنّ المقام حيث كنت ليست به سوى نافذة واحدة، نظرت منها فرأيت جسراً بعيداً. على الجسر كانت نساء زائغات النّظرة، ميّزت بينهنّ طفلاً، كان الطّفل ولداً، لكنّ اسمه كان نهال...

وكان من الممكن أن تمضي الحياة هكذا إلى الأبد، دون أن ينغّص رتابتها أيّ لدغة ألم أو جرعة أمل زائدة، لولا أن دخلت «يدُه» على الخطّ. تعرفّ عليه هو أيضاً من خلال اليد. أو كانت هذه أيضاً مجرّد صدفة. في يوم ١٥ مارس ٢٠١٢ غيّرت نهال صورتها، وضعت صورة رجلٍ، تحديدا صورة يد رجل، كانت يده منقوشة بالحناء ومكتوب عليها اسمها، اسم نهال. وهي في الخلفية، لا يظهر سوى جزء من قفطانها الأخضر، قفطان ليلة الحناء كما قَدَّر. تصوّرها ضاحكةً. اعتُصر قلبُه لأوّل مرّة منذ عرفها. كان قد قدّر أنها لن تكون له، لكنّه لم يكن قد وضع في حسبانه ردّ الفعل الذي سيصدر عنه حين ينقطع أيّ أمل في أن يكونا معاً. زلّت القدمان، لم يعد قادراً على الحركة، ارتجفت ركبتاه، خطرت بباله عبارة لا معنى لها في هذا السياق، كان قد سمعها في العمل، كان زميلاه يتهامسان بفجور، وقال أحدهما للآخر: «... هناك تركت كلّ نقودي، وأخذت القوّادة نقودي كلّها وأخذت الفتيات جهدي كلّه، عدت بركبتين خاويتين...»، كان والد الغربي

حين يعود متعباً مساءً من العمل يقول لأمّه: «خواو ليّا الركابي». ما معنى خواء الرّكبتين؟ برقت بباله خاطرة مؤلمة كانت قد نغّصت نومه لياليَ متتالية أيام الجامعة. يومها كان بعض الطلبة يلعبون كرة القدم المصغرة في ملعب مرصوف بالحيّ الجامعي، وتعرّض أحدهم لعرقلة فاحتكّت ركبته بالإسفلت وتمزّقت حتى ظهر عظمها مشقّقاً، ودوّت صرخاته... إنّك تهذي يا الغربي... قُم لتنام، قم علّك تصادف هناك يدها فتكون عزاءً عن يده... هيا قم!

*

مقتطف من دريمي ٢: حُلم ليلة ١٥/ ٣/ ٢٠١٢

أركضُ. لا أستطيع الآن أن أتذكّر هل كنت أركض في شارع أم في خلاء، كما لا أستطيع تحديد الزّمن. أراني فقط مبتور الذراعين أجري وأصرخ: احضنوني...

عند هذا الحلم تنتهي الصفحات المكتوبة في دريمي ٢.

الفصل الثّاني

2

فتُفهَم الكلماتُ تارةً وطوراً لا تُفهَم.

المَطهر/ الأنشودة ٩

قردُ الحِبر؛

بمجرّد ما أطلّ حارس المرمى من البوابة قفز القردُ إلى عنقه. لم يكن الحيوان يشبه القرد تماماً، حتى أن الرّجلَ خالَه في البداية أحدَ القوارض. كان منزلةً ما بين السنجاب والسمّور. فَروُه أسودُ لامع وعيناه كالعقيق الأحمر البرّاق، وله يدان آدميّتان بأربع أصابع. ولم يلحظ الرجلُ القردَ حين قفز إلى عنقه، وما كان لديه من إمكان لتأمّله، لكنّه كان مُلِمّاً بتفاصيله كلها، كأنّه يحدّق فيه مباشرة.

طوّق القردُ رقبة الرّجل من الخلف، لكنّ الرّجل وإن كان يعلم بوجوده إلا أنّه لم يكن يشعر بأيّ شيء يثقل عليه، كأنّما لا وزن للحيوان، ولا يخلّف التصاقه بالجسد إلا القدر من الإحساس الذي يخلّفه احتكاك الهواء بالجلد.

«يكثر وجود هذا الحيوان في مناطق الشمال، طوله أربع أو خمس بوصات؛ حُبيَ بغريزة عجيبة عيناه أشبه بالعقيق الأحمر

ووبره بمثل سواد السبج، ناعم لين وثير كوسادة. نهمُه مفرطٌ لحبر الصين، وعندما ينكبُّ أحدهم على التدوين، يقعد يداً فوق يد وساقاً فوق ساق، ريثما يَفرغُ من التدوين ثم يشرب ما تبقى من الحبر. عقبَ ذلك يقعي على جري عادته، ساكناً مطمئناً.»[1]

«لعلّك دهش أيها الرّجل لعلك دهش!» استدار الرجل فلمح شخصاً يكاد يحاذيه. «تسمّى هذه الطريقة من المعرفة، بالمعرفة بالممكن» حدّق الرّجل مليّاً في مخاطبه، لم يستطع أن يستقرّ له على ملامح كانت النظرة تغوص في وجه الرّجل كأنّما تنزل في سرداب. «قلت لك تسمّى هذه المعرفة، المعرفة بالممكن، أنت تعرف بمعرفة الآخرين!» كانت النظرة تزداد توغّلاً في السرداب ثم ما تلبث أن تصعد كقطعة فلين إلى السّطح، دون أن تستطيع تحديدَ ملامحِ الماثلِ أمامَها. «لا تتعب نفسك في التفكير، ثمّة أمور لن تدركها ولا حاجة بك إلى التفكير فيها» «المعرفة بالممكن؟» «نعم، المعرفة بالممكن! تعرف الأشياء كأنما تُلقى في نفسك إلقاءً... تحسّ كأنّك تقرأ أو كأنّما يُقرأ عليك... هي إقراء، هذا ما هي عليه بالضّبط...»، فهم الرّجل مقصود مخاطِبه، لكنّه لم يستطع إدراك المعنى، أو لم يستطع بالأحرى إدراك إدراكِه للمعنى، «أعرفُ إحساسك، ثمّة فرق في الإدراك بينَ ما تسمعه منّي الآنَ وما أُقرئ عليكَ قبلَ قليل... لقد فهمت الأمرين معاً، لكنّ طريقة إدراكك لهما مختلفة، لو جازَ ليَ التّشبيه سأقول إنّك أدركت الكلمات في الحالة الأولى مثلما قد يُدرك أحدهم ثلاثة صناديق موضوعة بعضها لصقَ بعض، تدركها كوحدات مشكّلة للمعنى،

---

(١) من كتاب المخلوقات الوهمية لبورخيس، بترجمة بسّام حجّار.

وتدرك في الآن نفسه ما يربط بينها، أي إنّك تستطيع الإلمام بالكلّ والأجزاء في آن؛ أمّا الكلام الذي سمعته منّي، فأدركتَه كمن يُدرك ضباباً، يستطيع الإحاطة بفكرة الضّباب، بل وحتّى رؤية الضّباب، لكنّ رسم خطّ محيط بما يدركه يظلّ أمراً متعذّراً. . .» همّ الرّجل بالحديث، لكنّ الرّجل الآخر قاطعه مواصلاً كلامه: «بالطّبع تتساءل لمَ سُمّيت تلك الطّريقةُ المعرفةَ بالممكن، ولو أنّي كنت أتوّقع أن لا أخبرك بكلّ هذه الأمور حتّى يحين وقتها، أي بالتدريج، لكن لا بأس يبدو أنّ حظّي أوقعني في رجل مميّز. . . تسمّى المعرفةَ بالممكن لأنّها الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تُقال لك بها تلك الأمور، لا يمكن أن تصاغ بشكل آخر، لا يمكن أن يضاف إليها سطر أو ينقص، لا يمكن أن تضاف إليها حتّى كلمة واحدة أو مجرّد حرف، حتّى الفواصل والنّقط التي تحدّد زمنَ توقّف المتحدّث قد صيغت بشكل نهائيّ غير قابل للاستئناف، معنى ذلك أنّ أيّ واحدٍ من أبناء جنسك قد يخطو إلى هذا العالم سيسمع الكلام نفسَه كلّما واجهَه موقفٌ من مواقف عالمنا هذا. الاختلاف الوحيد سيكون في اللّغة التي تسمع بها الكلام، لا شكّ أنّك قد لاحظت أنّ حديثنا هذا بألمانية معاصرة، ولو أنّها تعدّ عتيقة جداً قياساً إلى بعض نسخ اللّغة الألمانية التي نتوّفر عليها هنا. الكلام نفسه يُلقى في نفس الواصلين هنا، إن احتاجوه، لكن بلُغات أخرى؛ كلّ الذين قفز القرد إلى أعناقهم أدركوه بنفس الكلمات التي أدركته أنتَ بها، لكنّ بعضهم أدركها باللّغة الألمانية، وآخرون بعربيّة صاغها لُبنانيٌّ ينتمي إلى القرن العشرين، وفئة ثالثة باللّغة الأمهرية أو لُغة وو الشّرقيّة، بيد أنّ كلّ تلك الصّيغ لها الأثر نفسه لأنّها صيغ مُجرّبة. تريد أن تسألني على من جُرّبت وكيفَ جُرّبت؟

إنّي أقصد بالتجريب شيئاً آخر غير ما تقصدونه عندكم، جرّبت أي أنّها سبق وطفت على السّطح، سبق وعرفها أبناء جنسك. أحياناً تنفتحُ بواباتٌ بين عالمَينا فتنتقل تلك الصّيغُ إلى عالمكم في شكل إشراقاتٍ تقع في نفس بعض شبيهيك، فيقيّدونها في إنتاجات تسمّونها أنتم أعمالاً أدبية أو فنيّة. من المؤكّد إذن أنّ تلك الصيغة، أقصد الصيغة التي أدركتَ بها قردَ الحبر، وهو في عالمكم قردٌ، موجودةٌ حرفياً في كتاب ما، أو مشهد سينمائي أو لوحة فنيّة بلُغةٍ من اللّغات، وأنت الآن تتلقّى الصيّغة الأصلية أو إحدى ترجماتها. لا أغفل كذلك أنّ بالإمكان وجود العديد من الصّيغ الزائفة، النسخ غير الحقيقية، التي تحويها أعمالٌ أخرى ظهرت قبل العمل الذي يحمل الصيغة الأصلية أو بعده، فقد يحدث أحياناً أن يفشل انتقالُ الصيغ فتكون صيغاً شائهةً لم يَحن بعدُ وقتُ انتقالها، كما قد تَذيع إحدى الصّيغ وتتناسخ في أعمالٍ عديدة نقلاً عن الصّيغة الأصليّة أو إحدى الصيغ المنقولة عنها...» واصل الرّجل التحديق في وجه مخاطبه السّردابيّ «لا شكّ أنّك تتساءل من أنا، الأيسر لك أن تعتبرني دليلك في هذه الطّريق، ولو أنّي أحسب العكس هو الصحيح، فأنت حقّاً دليلي. أمّا القرد فلا ريب في أنّ وجوده سيصير مبرّراً بالنّسبة إليك هذا المساء».

العضو-العائق؛

إنّه لنادرٌ أن يقطع أحدٌ
الطريقَ التي أذهبُ الآنَ فيها.

الجحيم، الأنشودة التّاسعة

انطلقَ الرّجلان. يشقّان طريقهما وسط الخلق. كانا يسيران بسلاسة كأنّما ينزلقان على الرّغم من أنّ الأجساد حولهما كانت مكتظّة. يسيران منزلقين بين الوجوه التّائهة، كلّ وجه يسير كالمسرنم باحثاً عن ذكرى وجه قديمٍ تعيد له شيئاً من ذاته. قفير من النّحل، لكنّه قفير بطيء وعناصره تتحرّك بلا هدف. حارس المرمى يتملّكه إحساس غريب، غدَت الحواسُ مختلطةً، وصار إدراكها للعالم واضحاً وعجيباً، فالعين تحسّ بالأشياء كأنّما تداعبها، وتقدر أن تستشعر حتّى ما يوجد خلف ظهر الرّجل؛ والأنف يتذوّق الرّوائح؛ والجسد يسير في الهواء محتكاً به كأنّما يمزّقه. «ما رأيك الآن وقد تخلّصتَ من عضوك العائق؟»، نظر الرّجل إلى مخاطبه ذي الوجه السردابي بملامح متسائلة، فردّ عليه: «اسمه العضو العائق، ذاك الذي كان يمنعك من إدراك العالم على هذا النّحو، وقد تخلّصت منه الآن. لو أنّك عشت حياة أخرى على عالمك، حياة عرفت فيها شخصاً يدعى فلاديمير جانكليفيتش، لكنتَ سمعت بهذا الشيء الذي يدعى العضو العائق. حواسكم في عالمكم هي ما يمنعكم من الإدراك، فعيونكم رُكّبت بحيث تؤدي وظيفتَي البصر والحَجب في آنٍ، بواسطتها تستطيع أن ترى، لكن وضعيتها في الرّأس هي نفسها ما يحجب عنك ما يقع خلف ظهرك. وقس على ذلك باقي الأعضاء والحواس، في نهاية المطاف جسدك بأكمله

عضو عائق، يجعلك تدرك الحياة، لكنّه يحجب عنك ما وراء الموت. الآن تخلّصت من العين العائق، صارت لك العينُ حقّاً...».

أكملا سيرهما بين الأجساد، ولم يكن المنظر يتغيّر. كانت كلّ خطوة تشبه سابقتها، كأنّما لا يتحرّكان. ومع ذلك كان حارس المرمى متأكّداً من أنّهما يتحرّكان، لأنّ إحساسه بجسده كان يتغيّر، كان يزداد راحةً وخفّةً؛ مع كلّ خطوة كان يخطوها كان ينضو عنه تعب حياته السّابقة؛ يتحلّل من ثقل اسمه. حاول أن يتذكّر اسمَه لكنّ ذاكرتَه عيَّت في الجواب. نظر إلى رفيقه متسائلاً، فأجابه قبل أن ينطق باسم: لا علم لي بمسار الرّحلة، نحن مأموران أن نسير إلى أن تجد أنت الطّريق، فتُغفرَ لي خطيئة خيانة الأمانة، وهذا كلّ ما في الأمر. حثّ السّير دون أن يزيد سؤالاً آخر. بعد مسافة عنّت له خاطرة؛ بدا له أنّه احتكّ بجسد سبق أن احتكّ به عند بوابة الخروج، التفت وحدّق مليّاً في الرّجل الذي صار خلفه، رأى ظهره يبتعد، وعندما أعاد بصره إلى الأمام صادف وجهه، أي وجه الرّجل. عندئذ فقط انتبه إلى أنّ الأمر يتعلّق برجل واحد فقط، كأنّما هو نسخة مكرورة لا تنتهي، رجل واحد فقط هو هذا الزّحام بأكمله. قال له رفيقه: ها أنت قد بدأت تفهم: الرّجلُ حملته معك من هناك. رجلٌ تائهٌ لا هوَ في عالمِنا ولا في عالمكم. ربّما صادفتَه هناك أو صادفكَ، أو لعلّه كان شاهداً على موتِك ورأى فيه حياتَه. أنا أيضاً أشعرُ أنّي أعرفُه، يذكّرني بإحساسٍ غامضٍ قديمٍ هوَ سبب نكبتي وسبب هذه الطّريق التي نقطعُها أنا وأنت. هوَ حدَّقَ في موتِك وأنا حدّقتُ في حياتِه. أنا تائهٌ هاهُنا معكَ، وهوَ بلا شكٍ تائهٌ هناك.

1

ومن العبث أنْ أقول لكما اسمي
لأنّه ليس بعدُ قويّاً رنينُه.

المَطهَر/ الأنشودة التّاسعة

أنا تائهٌ. ما عدتُ أحلم. ما عدتُ أشرد. ما عاد خيالي ينقاد لي. ما عدت أستطيع تمييزَ ظلّي. أحسّ بحضوري حضوراً كليّاً. جسدي ثابتٌ وذهني حاضرٌ في اللحظة. أحسّ أعضائي كلّها إحساساً واقعياً ثابتاً، لا أكاد أغفل عنها لحظةً. حواسي متيقّظة تماماً، أرى كلّ ما يدور حولي، وأسمع كلّ دبيبٍ يصدر بقربي. لهذا أنا أتعذّب. لا أستطيع الخروج من الزّمَن. لا الماضي أستعيده ولا المستقبَل أستشرفُه. حياتي تحنّطت هاهُنا. لا ذكرى أستعيدها ولا إحساس ماضياً يعاودُني. ما عدا مذاق رمادٍ غريب في فمي. مذاق لا يزول. لا معجون الأسنان يمحوه ولا الكحول. يدايَ غريبتان. شديدتا الواقعيّة. تطاوعانني في كلّ شيء. لا تشردان ولا تسيران عكس تفكيري. هذا الوضوح مقلقٌ. رفيقاي في البيت لم يلاحظا شيئاً، لكنّي أرى قلقاً في عيونهما. قلقَ من يتوجّس من شيء لا يعرف ما هو. ظلّ ثقيل جاثم بثقله في المنزل. ما عدنا نتبادل الحديث تقريباً. وحين نسكرُ سرعانَ ما ينفصلان عن

اللّحظة ويشرد بهما الخيال. أمّا أنا فجسدي يبالغ في إدراك النّبيذ. لساني يتذوّقه قطرةً قطرة. وأعضائي كلّها تستشعر دبيب حرارته في جسمي. أركّز في النّبيذ كثيراً. مثلما أركّز في كلّ ما يحدث. فقط ما لا يحدث هو ما لا أستطيع التركيز فيه. لهذا أنا ضائع. فقدتُ أهمّ ما يميّز أبناء جلدتي: الشّرود. أحاول جهدي أن أنفصل عن اللّحظة. أن أشرد. عبثاً. ليتني واحد من الاثنين الآخرين. ليتني المخيتير، ليتني عادل. هما واضحان. يعرفان نفسيهما والجميع يعرفُهما. لم أرَ بعمري أحداً في وضوحهما. الصورة التي يكوّنها الجميع عنهما هي نفسها الصورة التي يُكَوّنانها عن نفسيهما. بسيطان هما. ظلاّهما على الأرض واضحان. ولا شكّ أنّ أحلامهما مثلهما بسيطة. ليتني أحلم. ليتني المختار. ليتني عادل. ليتني أنا. من أنا؟

* * *

أنا المختار:

بإمكانكم أن تنادوني أيضاً المخيتير، لا آبه حقاً لنوع النداء. يرمونني بالمسكنة، أنا بالفعل مسكين، لكنّني لست بئيساً. على خلاف ما قد يتبادر إلى الذّهن أملك ثروةً بأكملها. خمسون بقرةً بالتّمام والكمال، وخمسة هكتارات مزروعة بالشّمندر، ومثلها بالعدس، نصيبي من الإرث. هي بالطّبع ليست في ملكيّتي الآن. يملكها الحاجّ. ابن القحبة الحاجّ. أبداً لن أناديه والدي. بسببه وقع ما وقع. هو ربّاني على كُره الفقيه، وكلّ ما يتّصل به؛ ذريّتَه وأجدادَه. الحليب الذي شربتُه كان لعناتٍ على الفقيه، وخبز الشّعير كان سباباً فيه. حين كنت أعود إلى البيت وقد شَجَجت رأس ولَد الفقيه، كان الحاجّ يقيم لي عُرساً. وحين يشجّ هوَ رأسي كان

يربطني من وسطي وينزلني في المطمورة. أخرجني من الكُتّاب وأدخلني المدرسة وأحضر لي مدرِّسَين خاصّين، واحدٌ معرّب والثاني مُفرنَسٌ، فقط كي أتفوّق على ولد الفقيه. كبرتُ وكبر الحقد. وكبُر ابنُ الفقيه، وكبُرت ابنتُه أيضاً. لبُخله كان يُرسلها للرّعي. وأنا كنت أكرهها، مثلما أكره كلّ ما يتّصل بوالدها وأخيها. اللّعنة على المراعي. كلّ مصائب الدّنيا أصلها المراعي. رأيتُها تقيّل في ظلّ صخرة. كان الصّهد لا يُطاقُ لدرجة أنّ العقارب تهيم كالممسوسة. وكانت هيَ هناك. بدت كخوخةٍ ناضجة. ولم تُقاوم. هاجمني أخوها بمنجل حصاد. وهشّمت رأسَه بصخرة، مثلما فعل جدّي قابيل. لكنّي على خلاف جدّي قابيل لم أهرب مع شريكتي، وإنّما هربتُ وحدي. أعطاني الحاجّ مائتي درهم، وقال لي: «حين أتى أبي إلى هذا المكان لم يكن يمتلك حتّى نصف هذا المبلغ، وانظر اليوم ماذا صرت أملك. خُذها وابدأ بها حياتَك في مكانٍ آخر. ولا تعُد أبداً. أو لا تعد حتّى أموت. ما فعلتَه تجاوزَ كلّ ما خطّطت له. الدّم هنا لا يسقط بالتّقادم.». ركبتُ النّاقلة إلى الرّباط. فكّرت بداية في الذهاب إلى الدّار البيضاء. لكنّ الدّار البيضاء، وهي المدينة التي يضيع فيها الجميع، هي نفسها المدينة التي سينفق المطالبون بدمي حياتَهم فيها باحثين عنّي.». كان أستاذ الفرنسيّة قد أعارني أيّامَ مراهقتي كتاباً لكاتبٍ إيطالي به قصّة بعنوان «انهيار الباليفيرنا». وقع لي نفس ما وقع لبطلها. العبث بحديدة طائشة كلّفه انهيار بناية بأكملها وقتل عشرات الأشخاص. مثله أيضاً عبثت بالخوخة النّاضجة فتهدّم كلّ شيء. لكنّه هو لم يهرب. وظلّ تحت رحمة الشّخص الوحيد الذي رآه حين عبث بالحديدة. أمّا أنا فهربت ولست تحت رحمة أحد. يعرض لي أن أنسى

تفاصيل ما وقع، لكنّني أبداً لا أنسى قصّة الإيطالي. خصوصاً الجملة الأخيرة، كانت جملة حادّة كالمدية: «أنا خائف». ليتني كنتُ واحداً من الاثنين الآخرين. ليتني الغربي، ليتني عادل. هما واضحان. يعرفان نفسيهما والجميع يعرفُهما. لم أرَ بعمري أحداً في وضوحهما. لا ماضيَ يطاردهما، ولا مستقبل يخيفهما. ليتني الغربي. ليتني عادل. ليتني أنا!

أنا عاديل:

أجمل شيء في هذا العالم -أجمل حتّى من جسد الأنثى- أموالُ النّساء. حين توفيت والدتي تزوّج أبي قبل أن يجفّ الماء فوق قبرها. سمعته يقول لعمّي سي مبارك، إنّ أهمّ آلة في البيت هي الآلة ذات الثقب، يمكن للرّجل أن يستغنيَ عن الثلاجة والغسّالة وحتّى التلفزيون، لكنّه لن يستغنيَ أبداً عن الآلة ذات الثقب، ثقب أبي الجديد كان يكبرني بسنواتٍ قليلة. كانت لطيفة جداً، ألطف حتّى من أمّي، تمنحني قطع الحلوى والنّقود، وتداعب شعر رأسي. أبي لم يداعبني يوماً، كان يأخذني معه إلى المزبلة، أو إلى المكتب كما يحلو له أن يسمّيها. نعم أنا ابن زبّال، ابن مراقب مكبّ الأزبال تحديداً. مُذ كنت طفلاً ووالدي يضعني في سطل النفايات، كان يريد لجسدي أن يمتصّ الرائحة أن يتآلف معها، أن يمتزج بها، كان يحضّرني لألتحق به في «المكتب». حكايتي وكيف آلت بي الأمور إلى أن صرت ما أنا عليه الآن، لا تستحقّ أن تقتطع أكثر ممّا فعلت حتّى الآن، ما يهمّ هو أنّ شَبَت وبي هوس للنّظافة وحبّ جامح لعطايا النّساء. أنا متعيّش على أموال النّساء. أخبرتني مرّةً مديرة صالة الرياضة التي أتدرّب عندها مجاناً، أنّ العمل الذي

أقوم به متعارفٌ عليه ومعترفٌ به في كثيرٌ من دول أوروبا. يسمّون أمثالي «جيكَولو». أنا أحد مسبّبات السّعادة السّريعة. وعلى عكس ما يعتقد الكثيرون، بفضلي أُنقذت أُسرٌ كثيرةٌ من التفكّك. أملأ الفراغ الذي يتركُه الأزواج، لأنّ العلاقات لا تقبل الفراغَ، ما إن يغيب أحد الطّرفين حتّى ينبغي أن يشغل أحدهم المكان الذي تركه ريثما يعود. بفضل أموال النّساء ألبس أفضل الملابس وآكل في أرقى المطاعم، وأنام في أفخم الفنادق. لا ينقصني شيء. أموال النّساء ملقاة على الطّريق، يحصّلنها بسهولةٍ، ويخسرنَها بسهولة. المرأة مجرّد أنبوب تمرّ عبره النّقود. رجلٌ يصبّ في الأنبوب، وآخرُ يصبُّ الأنبوبُ فيه. عليك فقط أن تعرف أين تقف، عند الطرف الذي يصبّ، أم عند الذي يُصبُّ فيه. وأنا اخترت... هل حقاً اخترت؟ هل لي من إمكان لأختارَ. أُعطيت جسماً قويا كالبغل لكن إرادة رخوةً كالشّمع. لا أستطيع القيام بأي مجهود عدا ذلك الذي أبذله في السّرير. وما أُعطيتُه في الجسم حُرمْتُه في الذّكاء. لهذا أنا لم أختَر شيئاً. لو كان لي أن أختارَ لاختَرتُ أن أكون أيّ شيء ماعدا ما أنا عليه. لاخترتُ أن أكون مثلما يتوهّم فيّ من لا يعرفني. ليتني كنتُ واحداً من الاثنين الآخرين. ليتني الغربي، ليتني المختار. هما واضحان. يعرفان نفسيهما والجميع يعرفُهما. لم أرَ بعمري أحداً في وضوحهما. لا ماضيَ يطاردهما، ولا مستقبل يخيفهما. ليتني الغربي. ليتني المختار. ليتني أنا!

2

أرض التوأمين:

لأُحسنَ عرض هذا الشّيء العجيب،
أقول إنّنا بلغنا أرضاً
تلفظُ من ترابها كلّ نبات.

الجحيم/ الأنشودة ١٤

الأرضُ قفر وترابها حارق، لونه أغبر، لم يسبق له أن تخيّل، قيد حياته السّابقة، تراباً متربا، أن يعلق الغبارُ بالغبار. لكنّ هذه الأرض اللّعينة ترابها حقاً مغبرّ، تراب يخنق الخطو ويجثم على الصّدر. كآبة طاغية استبّدت به، وضيق مروّع. لو أنّه أراد تخيّل الجحيم، لما توفّق في رسمه بهذه الدّقة. «إنّهما يتقصّدان خَنقَنا، أرضهما عدوانيّة مثلهما»، «من هما؟»، «التّوأمان»، «أجل، التّوأمان، آخر مرّة مررت فيها من هنا، لم تكن الأرض بهذه القسوة، يبدو أنّ جيشهما زاد عدداً وقوّة، أخشى ما أخشاه أن لا نقدر على عبور أرضهما، وتكون نهاية طريقنا معاً هنا!»، لم يكن حارس المرمى يدرك الفرق بين أن ينتهي المرء هنا، أو يكمل طريقه لينهيه في مكان آخر، لكنّه مع ذلك ارتعد من هول فكرة أن يضطرّ

للبقاء حبيس أرض الضّيق هذه. استدار في كلّ اتّجاهٍ باحثاً عمّا يشير إلى وجود شيء آخر غير هذا المنظر المروّع؛ أيّ لطخة في هذه اللّوحة الصفراء الرّتيبة، حتّى لو كانت لطخة دم، كانت ستطمئنه. لكن لاشيء. حتّى ما يدلّ على وجود التّوأمين، اللذين يتحدّث عنهما رفيقه، لم يكن له أثر! «لا تُطِل التفكير فيهما! سيظهران لا محالة!»، وكأنّ كلام الرّجل نادى المجهولَ فتجسّدَ. لاحت من بعيد سحابة غبارٍ مشطورة إلى نصفين، تتقدّم نحوهما. «واصلِ السير، ولا تتوقّف، مهما تسمع لا تتوقّف، الأذيّة هنا فقط بالكلام، طالما لا تنساق خلف الكلام، لا تخشَ شيئاً!». حفّ بهما صفّان من الأطفال، عن اليمين والشّمال، يسيرون معهم في الاتّجاه نفسه لكنّ وجوههم كانت مستديرة شطرَ الرّجلين.

ظلّا يسيران بعيون مثبتةٍ إلى الأمام، لا يحرّكان رأسيهما يميناً ولا يساراً. المسافة بينهما وبين صفّي الأطفال الذين يحفّانهما تضيقُ أكثر فأكثر. والنّظرات يحسّها حارس المرمى تلتصق بجلده، وتنهشه كأنّها أسنانٌ. ركض أمامهما طفلان بمسافةٍ قصيرة، ومدّا بساطاً أحمرَ. امتدّ البساطُ أمامهُما لا متناهياً، فوق الأرض المتربة، وبدا بعيداً كأنّما يختفي وسط سنابل قمحٍ، ثمّ ما يلبث أن يظهر أبعدَ متموّجاً كأنّه فوق ماء بحر، قبل أن يرتفع إلى السّماء، لكنّه على العموم ظلّ بعيداً، ممتداً أمامهما على نفس المسافة أي بخطواتٍ قليلة، لكنّهما لا يدركانه، كأنّما هو أيضاً يتحرّك مبتعداً، كلّما قطعا متراً ابتعد هو بمترٍ، فتظلّ أقدامهما تخطو على التراب المعفّر بالتّراب. اختفى الطفلان اللذان مدّا البساط، وتقدّم طفلان آخرانِ يحملان شريطاً، أحدهما يضع فوق رأسه ريشة ديكٍ هنديّ، والآخر يضع خوذة عسكريّ. مشى كلّ واحد من الطّفلين بحذاءِ

جانبٍ من جانبَي البساط الذي يمتد أمام حارس المرمى ورفيقه. ثمّ التحقت فتاتان بالرّكب متقدّمتين على الرّجلين وسائرتين فوق البساط. كانت إحداهما بلا ذراعين، لكنّها كانت بطريقةٍ ما تطوّق باقة زهورٍ، بينما حملت الأخرى، وكانت تضع على إحدى عينيها عِصابة رسمت عليها عينُ طائرٍ، وسادةً وُضع فوقها مقصّ.

الرَّكب يتقدّم ويزيد التصاقاً بالرّجلين. تقدّمت جوقة عازفين غير متجانسة يحمل كلّ واحدٍ منها آلةً صُنعت يدوياً: طفلٌ بجلبابٍ مغربيّ، قدماه حافيتان وعليهما زُرقة من أثر البرد يحمل شبّابةً مصنوعةً من أنبوبٍ بلاستيكيّ برتقالي؛ وطفل بملامح بدوية، على وجهه لطخات بقع زيت، يحمل آلةً وترية مصنوعة من علبة قصديرٍ مكتوب عليها بحروف لاتينية shell وبحروف عربية «سمسمية»؛ وزمرةٌ من أطفال بزي كشّافةٍ أذرعهم اليمنى مثبتة مستقيمة أمام صدورهم بأكفٍّ مفتوحةٍ، ومربوطة إلى عصيّ تمنعها من الحركة، كأنّما أُجبروا على أداء تحيّة ما، أما أذرعهم اليسرى فتنقُر على طبول صفيح معلّقةٍ على صدورهم، ويردّدون بين النقرة والأخرى عبارةً واحدةً «يحيا أوسكار»؛ صبيّاتٌ جميلات بقفاطين مغربية وملامح أمازيغيّة ينثرن زهوراً مجفّفةً من سلالٍ، ويغنّين:

نُفني الزّهورَ ونفنى معها
لئلاّ يأخذنا الملِكُ أو يأخذَها

ثمّ تقدّم هودجٌ يحمله أربعة أطفالٍ ذوي ملامح مختلفة، تنتمي لمناطق جغرافية وأزمنةٍ متباعدةٍ؛ طفل أسود ينتطق سلاحاً رشاشاً؛ وآخرُ ذو ملامح أسيوية عُلّقت فوق رأسه ساعةٌ يُسمع صوتُ دورانِ عقاربِها، دون أن تدور، وجهه متعبٌ كأنه لم ينم سنةً، عيناه

تنغلقان تلقائياً، لكن كلّما بدا أنّه سيغفو يصفع نفسه ويمسح بيده على السّاعةِ معتذراً؛ وطفلٌ خلاسيّ عنقُه وذراعاه تغزوهما حقنٌ فارغة؛ وطفلة غير واضحة الملامح، جسدُها كلُّه مفتوح ومعظم أعضائه ناقصةٌ، حتّى موضع عينيها مجرّد حفرتين غائرتين. فوق الهودج جلس طفلان توأمان أحدهما يحمل دفتراً كبيراً والآخر يحمل معجما متآكلاً، يرتديان نفس الملابس، على قميص أحدهما حرف L وعلى قميص الآخر حرف K. تقدّم الهودج حتّى حاذى الشريط فمدّ K يده إلى المخدّة وحمل المقصّ ثمّ قطع الشّريط، فارتفعت أصوات الصبايا المغنيات وصداح آلات الجوقة. بينما L يدوّن كلّ شيء على الدّفتر الكبير، ومن حين إلى آخر يفتح معجم أخيه كأنّما يحاول فهم معنى كلمة من الكلمات التي لم تُنطق أصلاً. استمرّ الموكب يتقدّم وتزداد صفوفه التحاماً، وضوضاء الجوقة ارتفاعاً.

ظلّ الرّجلان يحسّان بدُنوّ الصّفين منهما وقرب إطباقهما عليهما، دون أن يحدث ذلك فعلاً، كالخطر المحدق الذي يعذّبك توقّعه أكثر ممّا يعذّبك وقوعه.

قطع الرّكبُ الصّاخبُ مسافةً. تغيّر المنظر تدريجياً حتّى صار أرضاً قفراً منبسطة تناثرت فيها نباتاتُ شيحٍ وحلْفاء، وعظامٌ وجماجمُ مفرّقة. بدا في البعيد خيالُ كَوْمَتَينِ صغيرتَين غير واضحتين، إحداهما تبدو كنقطةٍ سوداءَ، بينما الأخرى نقطة بنيّة. ثمّ بدأت الكتلتان تقتربان شيئاً فشيئاً إلى أن توضّحتا تماماً. كانت الكومة السوداء عُقاباً سوداء تجثم كشيخ متلفّع في برنُس أسود، بينما النّقطة البنيّة كتلة من جلدٍ يغلّف عظاماً. لم يتوقّف الرّكب عن

المسير، وظلّت العُقاب وكومة الجلد تسيران معه، دون أن تتحرّكا من موضعهما. كأنّهما تُعرضان على شاشة عملاقة تتحرّك بموازاة الرّكب. العُقاب تقعي على بعد أمتار قليلة من كومة العظام والجلد. ويبدو أنّها ملّت الانتظار. اقتربَت من الكومة فتململت، وبرزَ رأسُها. ورأى الحارس الرّأس وملامح الوجه. كانت الكومةُ إذن طفلاً هزُلَ من الجوع. هو تقريباً في عداد الموتى. والعُقاب تنتظره، كأيّ طائرٍ كاسر محترم. بدا شبح رجلٍ يقترب من بعيد، ثمّ ما لبث شكله أن توضّح. كان يعلّق على رقبته آلةَ تصويرٍ عتيقةً مربّعة، ويرتدي بنطالاً قصيراً وقبّعة سافاري، وعلى ظهره حقيبة سفر. اقتربَ الرّجل مسافةً من الطائر والطّفل. ركّز الكاميرا على المنظر، فتوضّحت في الآن نفسه ملامحُه هوَ. كانت نفس ملامح حارس المرمى، فأحسّ الحارس باختناق. ضغط المصوّر زرّ الآلة فتململ الطّفلُ قليلاً. فتحت العقاب عينيها ثمّ عادت لإغلاقهما. أنزل المصوّر حقيبته من على ظهره، وبدأ يُخرج منها بعض الأشياء. أخرج لوحاً خشبياً وبسطه، أخرج منه أربعة ركائز، فصار اللوح بمثابة طاولةٍ مستطيلة واسعة، ثمّ أخرج بعض معدّات مختبر. رفع رأسه إلى السّماء، فظهرت نقطة سوداء وقع ظلّها على الطّاولة فصارت الطاولة معتمة، وبدأ الرّجل في تحميض الفيلم الذي انتزعه من آلة التصوير. بعد لحظاتٍ رفع رأسه إلى السّماء مجدّداً فاختفت البقعة السوداء، ورفع بيديه صورة فوتوغرافيّة أخذ يدقّق فيها، ثمّ جلس وأجهش بالبكاء. مرّ بقربه رجلٌ على دراجةٍ ناريةٍ، وأخذ يدور حوله، ويُخرج من حقيبةٍ حديدية بمقدّمةِ دراجتهِ، جرائدَ يرميها في كلّ اتّجاه، كانت واضحةً في الصّفحة الأولى الصّورةُ التي التقطها الرّجل وفيها الطّفلُ والعُقاب. لاحظ حارس المرمى أنّ

سائق الدرّاجة أيضاً كان يحمل ملامحه نفسها، واستقرّ في نفسه أنّ جميع من سيقابلهم في هذا الجحيم سيكونون حاملين لملامحه. ارتجف قلبه. توقّف الدرّاج عن الدّوران حول المصوّر، وانقشعت سحابة الغبار التي كان قد أحدثها دورانُه. وإذ انقشعت السحابةُ ظهرت في العمق صالةٌ واسعةٌ مقسّمةٌ إلى نصفين، نصفٌ مطليّ بالأسود وكلّ أثاثه أسود، ونصفٌ بالأبيض وكذلك أثاثه أبيض. في النّصف المطليّ بالأبيض، على مقاعد بيضاء جلس رجالٌ ببذلات أنيقة سوداء؛ وفي النّصف المطليّ بالأسود، على مقاعد سوداءَ جلس رجالٌ ببذلاتٍ أنيقة بيضاء. بينهم، في منتصف القاعة تماماً، وقف رجلٌ نحيلٌ ببذلة نصفها الأيمن أسود ونصفها الأيسر أبيض. أمامه لعبة روليت يديرها. كان الرّجال في الصالة يتصفّحون كُتيّباً عنوانه «الدّليلُ في المجاعاتِ وتربية الطيور الجوارح»، ويحدّقون في المشهد أمامهم، مشهد الطّفل والعقاب المتربّصة به، وبين الفينة والأخرى يرتفع صوت أحدهم «خمسون قطعة، أسوَد»، أو «عشر قطع، أبيض»، أو... تململَ الطّفلُ مرّة أخرى، فارتفعت أصوات الأسف في القاعة. أخرجت العقاب سيجارةً وأشعلتها وأخذت تدخّن نافثةً دخانها صوب الصبيّ، فارتفع التصفيق والهتاف داخل الصالة. ظهرت في الصالة مذيعةٌ توقّفت عند أحد الرّجال ذوي البذلات البيضاء وجّهت له المايكروفون قائلةً: «كالعادة نوجّه لك السؤال الذي نوجّهه كلّ ليلة: هل ستأكله؟»، سعل الرّجلُ ثمّ أجابها قائلاً: «في الواقع!». صاحت كأنّها تسعى لخلق إثارةٍ لدى جمهورٍ عريض: «سيّداتي وسادتي، ضيفنا الكريم يقول: في الواقع!»، ثمّ استدارت شطرَ رجلٍ من ذوي البذلات السوداء، وكان مثله مثل صاحب البذلة البيضاء ومثل المصوّر والدرّاج

والمذيعة ومحرّك الروليت، يحمل ملامح حارس المرمى. قالت: «وكالعادة نوجّه لك السؤال الذي نوجّهه كلّ ليلة: هل ستأكله؟»، أخرج الرّجل منديلاً أسود سعل فيه، وقال: «أمّا أنا فأقول: في الواقع!». «وكما لاحظتم سيداتي سادتي، ضيفنا الأوّل كان قد قال: «في الواقع!». أمّا ضيفنا الثاني، فيقول: «في الواقع!».». سرت الهمهمات في القاعة: «في الواقع! في الواقع! في الواقع! في الواقع! في الواقع! في الواقع!.....». همس رجلٌ في أذن الجالس بجواره: «في الواقع، كما يقول الدّليل، الطيور الجوارح أغلبها لا يفضّل إنفاق جهده في الصّيد»، فردّ عليه جليسه: «بل في الواقع، وكما يقول الدّليل: أملاح بيوسيل المعدنية، مع الكثير من الماء هي الحل!»، صاح رجل كان في المشهد منذ البداية ولم ينتبه إليه أحد، كأنّه غير موجود: «في الواقع، أنا أريد أن ألقي خطاباً!». ارتفع الضّحك والتّصفيق، وصاح الجميع: «دعوه يلقي خطاباً!»، كان الرّجل يرتدي بذلة مضحكة، وقد علّق على صدره علبة ورديّةً عليها قلوب حمراء، شبيهة بصناديق الاقتراع، ومكتوب عليها: «إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين». أخرج الرّجل جلاجل شبيهة بتلك التي تنقرها العوالم في الأفلام المصريّة بالأبيض والأسود، وأخذ يعزف عليها وهو يغني بصوت واثقٍ، تتغيّر نبرتُه علوّاً وخفوتاً بحسب ما تقتضيه جُملُه. أثنى على جهود الحضور الكرام، وذكّر بأنّ ما يحدث في القاعة ليس لعبةً عالميةً تقامر بمصائر الشّعوب، وتغتني من فقرهم وتشبع من جوعهم، كما أشارت إلى ذلك العديد من المنابر المُغْرضة. وإنّما الحضور الكرام يغامرون بوقتهم وأعصابهم من أجل كسبٍ أكبر، لابد أن يصيبَ منه ولو قليلاً الأطفالُ حول العالم. وفي هذا الإطار تعمل «الجمعية

الدولية للإفادة من خيرات المغامرة العالميةِ المسماةِ زوراً قماراً» التي يرأسها هو نفسه، على توحيد الجهود بين الدّاعمين والشّركاء من المجتمع المدني، من أجل التغلّب على الفقر والهشاشة، وصنع غدٍ أفضل لأطفالنا، الذين هم مستقبل هذا الكوكب وثروته الدائمة. وفي هذا الإطار قُمنا بإبرام شراكة جديدة مع مؤسّسة البريد الدولي، واتّحاد رسامي الكاريكاتور الأحرار، وجمعية مُصوِّري الحقيقة براً وبحراً وجواً، و«مطابع هولدينغ الإعلام من أجل مستقبل الكواكب»، على بلورة مشروع طبع بطاقات بريديّة جديدة، يساهم في إنتاجها كلّ الشركاء المذكورين آنفاً. تُوزَّع البطاقاتُ على مجمل مناطق كوكبنا، وتُحدَّد أنصبةُ الرّبح من مبيعاتها الدّولية بحسب مساهمة كلّ شريك. وها قد أحضرت معي نموذجاً لأوّل بطاقة نصدرها». ثمّ أخذ يدور على الحضور موزّعاً البطاقات البريدية. «تفضّل سيّدي!»، «تفضّل سيّدي!». وكلّما أخذها أحد الحضور حدّق فيها وصفّق. كانت البطاقة تمثّل نفس المشهد الذي كان الحضور يحدّقون فيه قبل قليل. غير أنّ لون العقاب بدا باهتا، وعظام الطّفل أشدّ بروزاً. واللّون في خلفية البطاقة كان أزرق سماوياً، بخلاف لون المشهد الأصليّ الذي كان متربا.

رمت العُقاب عقب السيجارة، وبدا أنّ الطّفل لم يعد يتململ، وكان المصوّر قد توقّف عن البكاء، وصار ساهماً كأنّ ما يحدث غريب تماماً عنه. في الخلفية اجتمع أصحاب البدلات والدرّاج والمذيعة والرّجل الذي تلا الخطبة ومدير الرّوليت، مبتسمين متأهّبين لأخذ صورة جماعيّة. بينما الموكبُ ما يزال يتقدّم، وكانت حالة البكاء التي استبدّت بالمصوّر قد انتقلت إلى حارس المرمى. انقبض قلبه، وسالت دمعةٌ. دمعة واحدة فقط، فتلاشت ملامح

الجميع، صارت ملامحهم مختلفةً تماماً عن ملامح حارس المرمى. فانفرج قلبه قليلاً، ثمّ تلاشى المشهد بأكمله. دون أن يتوقّف الرّكب عن السّير.

. . . الرّجلان يضربان في الأرض المغبرة، يحفّهما صفّا الأطفال خافقين بأعلامهم وعازفين على آلاتهم؛ وأمامهما البساط الممتدّ ما يزال يبتعدُ، محافظاً على نفس المسافة منهما. تموّج البساط في انعراجاتٍ عديدة، مخلّفاً وراءه الأراضي اليباب، وبدا أنّ المنظر العام يبنَعُ متغيّراً نحوَ صفرة باهتة تعطي الانطباع بأنّها امتدادٌ لخضرةٍ. على يمين المشهد وشماله أراضٍ محروقة وبقايا زرعٍ محصود. ومن بعيدٍ لاحَ كوخٌ حجريّ وبئر وبضع دجاجات. اقتربت المسافةُ بين الرَّكْب والبئر، فتناهى من أعماقها غناءُ طفلة. كانت أغنية عن الخوف وفقدان الأمّ. خرجت من الكوخ أربع بناتٍ في تنانير قرويّة، ثلاثٌ منهنّ تحلّقنَ حولَ البئر، فيما ظلّت واحدة، وكانت أكبرهنّ، جالسةً عند عتبة الباب تتحسّس ندبةً في وجهها من أثر ضربة منجلٍ قديمة، وتحسّ كُلاّباً يعصر أسفل بطنها، وتنظر إلى البئر وترتعد.

أصغر البنات أخذت تُلقي بحصىً في البئر وتصيخ السّمع لكي تقيس عمقَه. رمت حصاةً أولى وثانيةً وثالثةً، دون أن تسمع صداها، ثمّ ابتسمت وقالت لأختَيْها: «ما زال الوقت بعيداً، أُمّنا أخبرتني أنّ الحصى لا يكذبُ، وأنّني لن أقع في البئر حتى أسمع صدى الحصاة، آنذاك سأكون طويلةً، طويلةً بطول النّخلة أو أكثر». أمّا الوسطى فأخذت تنادي باسمها في البئر، فَتَرُدّ البئر اسماً قريباً من اسمها. فمالت على حافّته حتّى كادت تسقُط، ثمّ تراجعت

للخلف مضطربةً، وظلّت تتردّد بين أن تنظر في البئر أو تبتعد عنها. قالت لأختَيها: «اسمي غير واضحٍ، أخاف ألاّ أكون أنا المقصودة، فأقع في البئر وتنكسر رقبتي.». قالت الثالثة، وكانت فوق الثانية سناً، ودون الجالسة عند العتبة: «اسمعن يا بنات أغنيةَ أختِنا في البئر، كأنّها تخاف علينا من أن ننزلَ خلفَها». أرهفن السّمعَ جميعاً. كان صوتُ الأخت يزدادُ حزنا وألماً، وهي تغنّي أغنيةً طويلةً عن غياب الأمّ، وقسوة الأب، وعن الأخ الذي لم يولَد.

خرج الأب من البيت، بصحبةِ رجلٍ أشعث الشّعر. قال الأشعث للأب: «لا تتقدّم، ستُفسِد المشهدَ!» خطا خطوةً، ثمّ صنع مربّعاً بإبهاميه وسبّابَتَيه وأخذ ينظر من خلاله، كأنّما يؤطّر مشهداً. ثمّ خاطبَ البنات الأربع: «للأسف، لم نستطع تصوير اللحظة التي سقطت فيها أختكم في البئر، نحتاجُ أن نعيدَها، لكي يعلم العالم ما جرى، أيُّكن ستتطوّع للقيام بذلك؟». قالت الأولى: «قامتي أصغر من شُجيرة الصّبار، وكي تهبطَ البئر تحتاج البنت أن تكون في طول نخلة»، قالت الثانية: «اسمي غير واضحٍ بعد»، قالت الثالثة: «أنا صدى أختي التي سقطت، ولا ينفع أنْ أكون صوتَها». نظرَ الجميع إلى الجالسة عند العتبة. كانت ما تزال ترتعد. نظرت صوب البئر. وقالت: «البئر تعرفني وأنا أعرفها، وكلانا يعرف أنّي سقطت فيها مرّةً، ولن أسقط مرّةً أخرى». قال الرجل الذي خرج صحبة والدِهِنّ: «لا مشكلةَ إن كنتِ متعبةً، فلست تحتاجين أن تقومي بنفسك إلى البئر، لقد تطوّرت تقنيات التّصوير كثيراً، ونستطيع أن نجعل البئر تأتي حتى عتبة الباب وتميل إليك لكي تهبطي فيها. المهم أن نكرّر ما حدث لأختكنّ. ينبغي أن نُعيد ما حدث مرّةً ومرّتَين وثلاثاً ومائةً وألفاً... رسالتُنا في الوجود هي هذه، أن

نكرّر ما حدث، حتّى نحصل على المشهد الذي يريده المشاهدون. ستنزلين البئر كما نزلتها أختُك، وقد تنزل أخواتُك تباعاً، وإن اقتضى الأمر فسنُنزل كلّ بنات القرية، وبعدهن كلّ بنات القرى التي حول قريتكم.».

شكّل الرّجل أصابعه مجدّدا في شكل مربّع، ثمّ بدأ ينظر عبره إلى البئر، ويقرّبه من عينيه، فبدأت البئر تتحرّك، انبثقت من الأرض وارتفعت في الجو كصومعة، ثمّ مالت منحنية صوب عتبة الباب حتى صارت صفحتُها تحدّق في عينيّ البنت. نظرت البنت في البئر، وكانت صفحة مائها صافيةً تُغري بالنّزول. أمعنت الفتاة النّظر فاضطرب ماء البئر لوهلةٍ ثم ما لبث أن صفا وراقَ، فصار أشبه بمرآةٍ صقيلة. نظرت الفتاة في المرآة، فرأت وجهها صافياً مورّداً وعليه آثار سخامٍ من ذلك الذي كان يعلق فيها أيام كانت تساعد أمّها في طبخ خبزهم المبارك في التّنور. لم تكن على خدّها ضربةُ المنجل الغائرة. ابتسمت الصّورةُ في المرآة، ثمّ تراجعت إلى الوراء دون أن تستدير. عندما ابتعدت غائصة في المرآة، بدا في المشهد خلفَها تنّور خُبزٍ، فجلست متربّعةً أمّامه وأخذت تقلبُ الخبزَ بعودٍ فوق الحصى. كان الخبز طيّباً وجميلاً، خبزاً أسطورياً من نوع خبز «تافرنوت» الذي يطبخه الأمازيغ فوق الحصى. وبقربها كانت ترعى دجاجةٌ وصيصانُها آمنين في مملكة اللّه. ورغم الهدوء الذي تنعم به مملكة الله أحسّت البنت بالخوف. خيّل لها أنّ حدأةً تستعدّ لتنقضّ على صوص من الصّيصان. الحدأة دائماً تأخذ نصيبها من الصّيصان. والمشكل أنّه لا أحد يعترض على هذه الخسارة، كأنّما هناك اتّفاقٌ سريّ بين القرويّين والحدأة، يقدّمون بموجبه قرباناً لها كلّ مرّة. رفعت ناظرها إلى السّماء، فبدت السّماء صافيةً، ولا

حدأة أو أيّ طائر، يلطّخ مشهدها، وعندما خفضت بصرها، جثم عليها ظلّ ثقيل، ظلّ بهيئة طائرٍ عملاقٍ، نشرَ جناحيه في الأفق. رفعت بصرها مرّةً أخرى، فألفت السماء صافية كما كانت، رجف قلبها، وتيقّنت أنّ الظّل ظلُّ هيئةٍ واقفة أمامها. وأمامها كانت امرأةٌ ملتفّةً بحايك أسود، أسنانُها شديدة البياض، ولابدّ أنّ اسمها «رابحة». أمسكتها «رابحة» من يدها، فانقادت لها. دخلت بها وهي كالمسرنمة إلى بيت صغيرٍ حيث كانت نسوةٌ يزغردنَ ويرششن ماء الزّهر. أدخلتها «رابحة» وأمّها إلى حمّامٍ، فكّتا جديلَتَيْها، ولطّختا شعرها بالحناء و«الغاسول»، ثمّ نظّفتاها بماء ساخن وليفة ناعمة، ونتفتا شعر إبطيها وعانتها، بينما تهمسان لها بكلامٍ بدا لها شديد البذاءة. وكان أن زُفّت. أوصلها أبوها بنفسه إلى بيتها الجديد. عندما أُدخلت الغرفة، كانت هناك هيئةُ رجلٍ بجلبابٍ أبيض يغطّي رأسَه. كان يوليها ظهرَه. وحين استدار رفعت بصرها إليها فلم ترَ داخل الجلباب ملامح بشرٍ وإنّما بئراً سحيقةً، بئراً تدعوها إلى النّزول. وسقطت في البئر عميقاً، دون أن تبلغ قرارَها. بئرٌ لا حدَّ لها، كلّما قطعت متراً من أمتارها تلقّت صفعةً أو رفسة. ما إن سقطت، وقبل أن تُكمل المتر الأوّل، حتّى ضغطت عليها البئر وتلبّستها. كانت هي لحمةً بضّةً بيضاء، والتصق بها لحمُ البئر الخشنُ والتحما. نتوء من جسد البئر افترع ما بين فخذَيها. ألمٌ حادٌ وغثيانٌ وقيء. لكن جسد البئر يزداد استثارةً وسعادةً كلّما ازدادَ ألمُها. الأمتار التي نزلتها بعد ذلك، نزلتها وهي تمشي مفرّقةً بين فخذيها وألم كَسكَاكِين يطعنها كلّما اقترب فخذاها أو احتكّ أحدها بالآخر. في كلّ مترٍ تنزله من البئر، يظلمُ الليلُ، ومع إظلام الليل يشتعل جسد البئر وينسحقُ جسدُها. بعدما قطعت أمتاراً سقوطاً في

البئر، تحوّل جسدها، صارَ غريباً كأنّما انتُزعت منه الحياة، ثمّ ما لبثت أن أحسّت حياةً أخرى تدبّ فيه. برز بطنها، فقلّ اشتعال جسد البئر رويداً رويداً. وكان أن خرج من جسدها جسدٌ، أحسّت أنّه روحها قد تجسّدت خارجها. أحبّته وعوّضها كلّ شيء. لكنّ البرد، والبُعد، وقساوة الجغرافية، تجسّدا في هيئة حدأةٍ متربّصة. اقتنصت الحدأةُ روحها. وعادت لتسقط في غيابة البئر، متراً بعد متر، وفي كلّ مترٍ لطمةٌ أو رفسة. إلى أن بلغت المترَ الذي لا رجوع بعده. في لحظة لا تذكر ملابساتها، ضربتها البئر بمنجلٍ في الوجه، ولفظتها. عادت إلى بيت أمّها. وكانت الأمّ قد رحلت. وصارت تجلس عند عتبة الباب، كلّ مرّة تراقبُ البئر القريبة، فتأتيها رغبةٌ في أن تلقي بنفسها فيها.

لكنّها تخاف البئر. تخافُ كلّ الآبار. وها هي الآن ترتجف أمام دعوة هذا الرّجل الأشعث، إلى النّزول، لكي يعيد تصوير لقطة سقوط أختها في البئر، مهدّداً بأنّه قد يعيد التّصويَر مرّةً ومرّاتٍ، مستنفداً الصبايا واحدةً بعد أخرى إلى أن يحصل على اللّقطة التي يريدها.

اضطرب ماء البئر مجدّداً، وبدا أنّ المرآة الصّقيلةَ التي كانت فيه قبل قليل قد تهشّمت وتناثرت شظاياها. في كلّ شظيّة كانت صورة صبيّة هاربةً من بئر. تناثرت الشظايا، وركضت الصبايا هاربات في الحقول. وسار الرّكبُ ملاحقاً الصّبايا، ومُخلّفاً وراءَه الكوخ والبئر والأب والمُخرج الأشعث، والحصائد المحروقة. ظلّ البساط يمتدّ وسط الحقول شاقّاً السّنابل كحصّادة لا تتوقّف، وحوله صفّا الأطفال الصّاخبين يخترقون الزرع الذي يغطّيهم تارةً وطوراً يكشف عن أجزاء من رؤوسهم. مشى الموكب متابعاً تعرّجات

السهول والأودية، دون أن يتوقّف L عن الكتابة وتصفّح المعجم. وكانت الصبيّات ما يزلْنَ يركُضن متفرّقات، كلّ واحدةٍ في طريق، لكن في كلّ مرّة تتعرج بهنّ الطّرق فيلتقين، ثمّ يبتعدن مجدّداً. وفي البعيد بدا أنّ البساط يتبع طريقاً مرتفعةً، كأنّما يصعدُ جبلاً، إلى أن يختفيَ في ضبابٍ بعيدٍ. التقت طرقُ الصّبايا في طريق واحدٍ كأنّه نهرٌ أوَت إليه جداولُ. لكنّهن لم يتوقّفن عن الرّكض حتّى غِبن في ضباب الجبل. وسرعان ما ابتلع الضّباب الموكبَ أيضاً.

نظرَ حارس المرمى حولَه، فلم يجد أثراً لأحدٍ. لأوّل مرّة مُذ خَرقَ الجدار بين العالمَين، يُلفي نفسه وحيداً. أبديّةٌ بيضاء تلفّه. أدرك كم هو البياضُ أشدّ إخافةً من الظلام. وأكثر ما أخافَه هو غياب رفيق رحلته. البياض لفّ الجميع صوتاً وصورةً. كأنّما ذابوا. لكنّه لم يستطع التوقّف عن المشيّ، ظلّ سائراً كأنّما هو مبرمجٌ ليتابعَ طريقَه. بدا رأس إحدى الصبايا وسط الضباب، واختفى. ثمّ ظهر رأسُ أخرى، واختفى، وظلّت رؤوسهنّ تظهر وتختفي إلى أن ظهرت جميعاً في موضعٍ واحدٍ، ولم تختفي بعد ذلك.

توقّفت الصّبايا، وانقشع الضّباب قليلاً، فشفّ عن مدخل مدشر صغيرٍ بيوتُه بُنيت بحجارة غير متجانسة. دخلت الفتيات ساحةَ المدشر. تحلّقن حول نارٍ تقلّبُها عجوزٌ. بأيديهنّ قلّبن جمرَ النّار، وحملت كلٌّ واحدةٍ جمرةً. وكلّما حملت الجمرة إحداهنّ قصدت بيتاً من بيوت المدشر، ففُتح الباب. وحدَها أصغرهنّ لم تستطع حمل الجمرة. مسحت العجوز على رأسها، وقالت: «نستطيع أن نجعل النّبتة الصّغيرة بطول نخلة». وضعت في يدها جمرةً وربطتها بعصابةٍ كي لا تُفلتها. وحملتها بنفسها إلى بيت من البيوت.

لا شيء يدلّ على أنّ الزّمن مضى أو أنّ الليلَ خلفَه نهارٌ. فالوقت لم يكن ليلاً ولا نهاراً، ولا كان وقتاً بالأصل. لكنّ خمود النّار أعطى الانطباع بأنّ ليلةً انصرمت. خرجت الصبايا من البيوت، وقد استقرّ في أذهانهنّ أنّهن سيبتن الليلة المُقبلةَ في بيوتَ أخرى. قبّلنَ يد العجوز ونادينها «يمّا». كانت أصغرهنّ قد ازدادت طولاً، صارت بطول نخلة. حفّت الصبايا، اللّواتي صرن الآنَ نساءً، بأختهنّ النّخلة. ومضين تتقدّمُهن العجوز إلى تلّ مرتفعٍ. على التلّ دفنّ خِرقاً ملطّخةً بالدّم. صلّين صلاةَ الغائب، على غائبٍ نسَيْنَه. ثمّ عُدنَ إلى المدشر، وقد صارت النّظرة غير النّظرة. صارت العيون يابسة، والنّفوس قاسية، يستحيل أن يؤثّر فيها شيء أو يُبكيها شيء بعد. وحدها عيونُ حارس المرمى كانت ما تزال قادرةً على البكاء، وقد بكى... دمعةً، فانقشع الضّباب...

تجلّى رفيقُه، وعاد الموكب الصّاخب إلى الظّهور، والبساط ممتداً أمام الرّجلين، والطريق يمتدّ بالسّير، مخلّفاً وراءَه الجبل والمدشر والضّبابَ والنسوة اللّواتي دفنّ الصّبايا اللّواتي كُنَّهنَّ. نزل الطّريقُ الجبلَ، وبدأ منظر الخُضرة يتغيّر تدريجياً نحو منظرٍ أشدّ عراءً، وتغيّر الجوّ، إذ تحرّكت الرّيح وحملت معها مذاقاً لاذعاً. ولاح في الأفق خطّ يفصل السّماء عن البحر. كان الفرق واضحاً بين السّماء والبحر، لكن مع ذلك كان المنظر يفقد كلّ علاقةٍ بالبحر أو السّماء. فالبحر كان غريباً، كان حضوره ثقيلاً وكثيفاً وكاسحاً كحضور أيّ بحر، لكن لم تكن ثمّة رائحة الملح اللاذعة، التي تخترق الأنف والفمّ في نفس الوقت، ولا الرّيح التي تهبّ دوماً من البحر صوب الشّاطئ مهما كان اتّجاه الرّياح، ولا طائر يصيح أو

موج يصطخب. بدا الأمر أشبه بمراسِم حِدادٍ مؤلم. وبدا أنّ البساط قد توقّف امتداده عند التقاء الشّاطئ بالماء، ولكنّ الرّكب لم يتوقّف عن السّير، كان يواصل السّعي بنفس الإيقاع، دون أن يبلغ نهاية البساط. بدت على الشاطئ كتلةٌ هائلةٌ، قد رست، أشبه بحوتٍ ضخمٍ لفظته الأمواج. حوتٌ لم يسبق أن شوهدَ حوتٌ في ضخامته، حتّى أنّ العين تحتاج جهداً كبيراً لكي تحيط بأبعاده وتفاصيله. وقرب الحوت توقّفت شاحنة نقل، بدت أشبه بلعبةِ أطفالٍ مقارنةً به. وبعض الفضوليين على الشّاطئ يتابعون الشّيء العجيب الذي لفظته الأمواج. وغير بعيد في المياه رست بارجةٌ حربية ضخمة. وكانت تبدو على الجميع الحيرةُ تجاه الكائن الذي لم يتوقّعه أحد.

بذل حارس المرمى جهداً كبيراً ليلمّ بتفاصيل الكتلة. لم تكن الكتلة حوتاً، إلا إذا أقررنا بإمكان أن يرتدي الحوت قميصاً أحمرَ وسروالاً قصيراً وحذاءً جميلاً. كان المخلوق بلا شكّ آدمياً، آدمياً من صنف العمالقة، لكنّ تفاصيل جسده وطريقة انحنائه كانت تشي بأنّه مجرّد طفل. هو إذن طفلٌ صغيرٌ من أطفال أولئك العمالقة. كان مسالماً وهادئاً، ليس لأنّه ميّت فقط، ولكن لأنّ هيئته العامّة كانت تبعث في النّفس السّكينة، حتّى أنّ أمواج البحر كانت تنكسر بمسافة في الماء قبل أن تبلغ الشّاطئ، فتصل إليه واهنةً هادئة، تهدهده لحظةً ثمّ تعود إلى الماء.

فُتحَ بابُ الشّاحنة الخلفيّ، ونزلَ منه رجالٌ بثوب عمّال النّظافة، وآخرون بسترات الشّرطة البيئيّة والعلمية. وكان هناك رجلٌ بدينٌ ببذلةٍ بيضاء يبدو أنّ الجميع يأتمرُون بأمره، ترافقه، متخلّفةً عنه بسنتمتراتٍ قليلة، امرأةٌ ثلاثينيّة ترتدي تنّورةً تصل حدّ ركبتيها،

وسترةً كاروه، وقد عقصت شعرها وشدّته بقلم رصاص. قال الرّجل: «أهمّ شيء هو أن نتخلّص منه. بقاؤه هنا مكلّفٌ للجميع. إن استطعنا أن نتخلّص منه بطريقة مُربِحة فسيكون أمراً رائعاً، وإن لم نستطع أن نحوّلَه إلى أموال، فعلى الأقلّ لا ينبغي أن نخسر من ورائه. هل وصلت البرقيات؟

- برقيّتان فقط، واحدة من حكومة الجزر المنكوبة، والثانية من جمهوريّة السيّد المعارض الأوّل. وما زلنا ننتظر البقيّة.

- ينتظرون أن تصل برقيّتا السّيدتين القويّتين. لكي يحدّد كلّ واحد منهم موقفه ويرسل بعدها برقيّتَه. المشكلة أنّ السيّدتين القويّتين نفسهما تنتظران. كلّ واحدةٍ منهما تنتظر أن تصل برقيّة الأخرى، لتحسب حساباتها، وترسل برقيّة تعلن فيها موقفها انطلاقاً من موقف الأخرى. الأمر معقّد، لكنّه مجرّد لُعبة. المهم، لن تتأخّر البرقيات في الوصول. الموقف محرجٌ، ولا أحد يريد أن يبقى هذا الشيء على الشّاطئ، وجودُه مكلّفٌ ومزعجٌ للجميع.».

نظرَ في ساعته وأضاف:

«- حين تصلّ البرقيات كلّها، رتّبيها بحسب الأهميّة. وطبعاً لا ينبغي أن أذكّرك أنّ الأهميّة تتحدّد بحسب المُرسِل، لا بحسب المضمون. لخصّي بعدها مضمون برقيّتي السيّدتين القويّتين، وصنّفي البرقيات الباقية بحسب ميلها لأحد الموقفين.»

تحرّك البدين باتجاه الطّفل العملاق خطوتين، ثمّ توقّف وتابعَ سربَ سلطعونات ظهرت فجأةً على الرّمل ثمّ اختفت سريعاً. فرك عينيه، ونظر تجاه الشّمس، ثمّ أخرج منديلاً وأخذ يجفّف عرقَه. ظنّ أنّه غاب عن الوجود زمناً، إذ انتبه على صوت السكرتيرة تنبّهه إلى أنّ الجميع قد أبرقوا:

- السيّدتان القويّتان معاً تُبرّئان ذمّتيهما من المسؤولية. لا واحدة منهما تريد أن تتدخّل فيما تعتبره شأناً شخصياً.

- شأناً شخصياً لمن؟

- لم تحدّدا ذلك. كتبتا فقط أنّهما تعتبران الأمر شأناً شخصياً.

- تأكّدي هل كتبتا: «نرفض التدخّل في أمر نعتبره شأنا شخصياً: أم كتبتا: «نرفض التدخّل في أمر لا نعتبره بالنّسبة لنا شأناً شخصياً»!

قطّبت حاجبيها، كعادتها حين تعتقد أنّها أمام أمرٍ يكشف لها عن غبائها، ثمّ قالت، دون أن تتأكّد:

- لقد تأكّدت، كتبتا العبارة الأولى.

- هكذا! دون تحديد على من تعود عبارة «الشّأن الشّخصيّ»؟

- نعم، هكذا! دون تحديد على من تعود عبارة «الشّأن الشّخصيّ»!

- وباقي البرقيات؟

- كلّها تقريباً، عبّرت عن الموقف نفسه. لا تتدخّل فيما تعتبره شأناً شخصيّاً!

- اللعنة! مثل كلّ مرّة! هل قام المهندس بحساباته؟

- نعم.

- والنّتيجة؟

- الجثّة في نقطة ميّتة، عملياً لا يمكن اعتبارها ضمن نطاق مسؤولية أيّ دولة من الدّول!

- أو يمكن النّظر إلى الأمر بطريقة معاكسة!

- كيف؟

- يمكن اعتبارها بالتّالي مسؤوليّة الجميع، مسؤوليّتهم متكافئة، دمّ الضحيّة على ملابسهم جميعاً! وهذه أيضاً مسألةٌ قد تكون مربحة! لكن، هل قام المهندس بحساباتٍ دقيقة؟ كيف يمكن أن تقع الجثّة في منطقة ميّتة؟

- لقد قام بحساباتٍ دقيقة مستعيناً بأدقّ الآلات الحاسبة. ليس ثمّة من مجالٍ للشكّ، لقد رست الجثّة في نقطة ميّتة. في المنتصف بالضّبط، لا تميل بأيّ ميليمترٍ جهةَ أيّ طرفٍ كانَ.

- لو أنّ بئر زيت انفجرت مكان الجثّة، لكانت مشكلتُنا معكوسة، لتنازعت الأطراف كلّها على أحقيّتها في ضمّ بئر الزّيت إلى حدودها. لكن بما أنّ الأمر يتطلّب التّخلّص من جثّة! وأيّ جثّة! فإنّهم يتنازعون بينهم على نفي وقوعها عندَ حدودهم. والحلّ؟!

- الحلّ؟!

- الحلّ! في الحالات المشابهة تتبع الحرب تكتيكين اثنين لا ثالث لهما. التكنيك الأوّل، سبق أن أشرتُ إليه، ويمكن أن نعبّر عنه بالجملة التالية: «دمّ الضحيّة فوق ملابسهم جميعاً!»، أمّا التكتيك الثّاني فيمكن التّعبير عنه بالجملة التّالية: «لقد تفرّق دمه بين القبائل!». في الحالة الأولى تتحدّد المسؤوليّة باعتبارها مشتركة بين الجميع. أمّا في الحالة الثانية فتضيع المسؤولية بينهم، ويتملّص منها الجميع. في الحالة الأولى سنربح من الجميع، الجميع سيدفَعون. أمّا في الحالة الثانية فسيفلتون جميعاً، وقد نضطرّ للتخلّص من هذه النّفاية على حسابنا الشخصيّ.

- لكن لمَ لا نتركها هنا فحسب؟

- لا يمكن! ألم تلاحظي حجمها؟ كبيرة جداً، وثقيلة. منظرها يثقل كاهل الجميع!

جلس البدين على صخرة. بين الفينة والأخرى تظهر السلطعونات وتعود للاختفاء. السكرتيرة تدوّن أشياء في مفكّرتها، ومن حين إلى آخر تفكّ شعرها وتعيد عقصه وشدّه بقلم الرّصاص. ملّ العمال والشرطة الانتظار فاضطجعوا على الشّاطئ، بعدما طردوا مجموعةً من حماة الحيوانات النّافقة أتوا يحتجّون برفقةٍ فريق من مسرحيّي الشوارع، كانَ أفرادُه قد ارتدوا ملابس شبيهةً بملابس الطّفل العملاق، واضطجعوا فوق الشّاطئ على بطونهم، محاكين الطريقة التي رست بها جثّته.

هبط اللّيل دفعةً واحدةً، فأغرق الجميعَ. بعض العمّال استسلموا للنّوم، بينما قسّم أفراد الشّرطة دوريات الحراسة بينهم، وجلسوا يحتسون قهوة. وكان موكب حارس المرمى لا يزال بعيداً، وبالكاد كان يميّزُ وسط الظّلام بذلةَ البدين وسترات الشّرطة اللاّمعة، ومنها كان يخمّن البقيّة. سُمع صوت هديرٍ خافتٍ، فصفّق البدين واستيقظ النّيام. وكان البدين قد توقّع، بخبرته الطّويلة، ما سيحدث، لذا لم يُغمض جفناً وظلّ يراقبُ. صاح في الجميع كي يرهفوا السّمع ويحدّدوا منبع الهدير الخافت. وكان الهدير قادماً من أكثر من جهةٍ، فحزر الرّجلُ أنّهم كانوا أكثر من طرفٍ، وأنّ إمكاناته لن تستطيع مراقبتهم جميعاً. لهذا أمرَ بإشعال أضواء الشّاحنة وتوجيهها شطر المخلوق الراسي على الشّاطئ. وحين أشعلوا الأضواء انتبهوا إلى مدى ضآلتها مقارنةً بالمهمّة الجسيمة المنوطة بها. إذ لم تكن أضواء الشّاحنة تستطيع أن تضيء أكثر من جزء

ضئيل من الجسم، فقرّروا أن يجعلوها ككشافٍ يجوس المنطقة نائساً بين رأس الطّفل وحذائه. كان الهدير قد صمت، وبدت الأجواء هادئةً لا يعكّرها شيء، لكن غير بعيدٍ من المكان الواقع في النّقطة الميّتة، وفي غير ما موضعٍ، كانت هنالك عيون متربّصة تراقب الوضع مستعينةً بمناظير متطوّرَة، متحيّنةً لحظة الهجوم.

وهكذا عندما تحرّك نور الشّاحنة الكشّافة من شرق الموقع إلى غربه، تحرّك فريقُ كوموندو من الشّرق، وبسرعةٍ ربطوا قدمي الطّفل بحبالٍ وحاولوا زحزحتَه ولو بمليمتراتٍ غرباً. وعندما انتبهوا إلى أنّ الضوء الكشّاف يعود في حركته النّائسة صوبهم، أنزلوا الحبال بسرعة وعادوا إلى موضعهم وانبطحوا في الرّمل كاتمين أصواتهم. وفي الوقت نفسه الذي كان يتحرّك فيه الضوء الكشّاف باتّجاهم، كان فريق كوموندو آخر، يحمل علمَ مقاطعةٍ أخرى، يتحرّك صوب رأس الطّفل. كان الفريق الثاني يدفع مركبةً غريبةً، وعندما وصل أفرادُه إلى مسافة دقيقة من الرأس، ضغط قائدهم زرّ آلة تحكّم، فخرج من المركبة العجيبة مجسٌّ شبيه بآلة شفطٍ. التصق المجسُّ برأس الطّفل وبدلاً من أن يسحبه، صار يدفعه شرقاً باتّجاه موقع الفريق الآخر. وبما أنّ الفريق الأوّل كان قد زحزحه من قبل عن موضعه قليلاً، لم يستطع الفريق الثاني سوى أن يعيده إلى موقع الأصلي، عند النقطة الميّتة، قبل أن يلاحظ أفراده عودة الضوء الكشّاف، فيعودوا إلى موقعهم، وينبطحوا أرضاً كاتمين أنفاسهم. ظلّ الفريقان مدّة غير يسيرة يلعبان لعبة شدّ الحبل التي لا تنتهي، وظلّ الضوء الكشّاف ينوس بينهما في حركة منتظمة، وبدا أنّ الأمر لن ينتهي أبداً، قبل أن يُقدم قائد فريق المركبة العجيبة على مجازفةٍ خطيرة، بعد أن أبرق إلى القيادة المركزيّة وأخذ موافقتهم. لقد

قرّروا دفع الجسم بالمجسّ حتّى يعبر به إلى الحدود الشرقية، دون أن يعيروا اهتماماً للضوء الكاشف. وبالفعل صاروا إلى تنفيذ الأوامر غير آبهين بالضوء الكشّاف الذي توقّف عن القيام بحركته النّائسة وصار مركّزاً عليهم. وكانوا قد استطاعوا دفع الجسم سنتمتراتٍ، قبل أن ينتبه فريق الكوموندو الآخر للأمر، فيقدم قائده على خطوةٍ انتحارية، ويأمر الأفراد برمي الحبال، وسحب الجسم غرباً.

ظلّ الفريقان على حالهما مستبسلين في الدّفع والجرّ، إلى أن أشرقت عليهم الشّمس وجسمُ الطّفل عند النّقطة الميّتة التي كانَ عندها بالأمس. وصار واضحاً الآن أنّ اللّعبة صارت مكشوفةً، حتّى أنّ السلطعونات خرجت تركض في كلّ اتّجاه، وما عادت تختفي حين ينظر إليها البدين. ولم تكن السلطعونات وحدها التي خرجت إلى العلن. أتت العديد من الفرق، يحمل أفرادها أعلام مناطق أخرى. وكلما أوصل فريق إلا والتحقَ بأحد المُعسكَرَيْن. وكلّما بدا أنّ معسكراً يكاد يتفوّق، يظهر متغيّر جديد يعيد التّوازن. تسلّق بضعة أفرادٍ الجسمَ، ووقفوا في المنتصف، فوق السرّة بالضّبط. وأعلنوها منطقة حيادٍ، ودعا بعضهم إلى تحكيمٍ دوليّ. رجلٌ بجبّةٍ بيضاء اقترح أن يشتري من أحد الفريقين مساحةً من منطقته، ندفع إليها الجسمَ، وسيتكفّل بجميع تكاليف النّقل، كما سيعوّض صاحب المساحةِ بمبلغٍ سخيّ. وقال رجلٌ يعتمر طربوشاً أحمرَ غريباً إنّه يستطيع أن يتنازل ويمنحهم المساحة، لكنّ تكاليف رعاية الجسم الغريب ينبغي أن تكون دائمةً، وأن يحصل على امتيازاتٍ حقيقية. بدأ الجميع يتصايحون، الجميع طالب بدورٍ في عملية النّقل، وبمقابل يناسب جسامة الدّور الذي سيضطلع به..

ظهر في المشهد محامون ببدلاتهم السوداء وأخذوا ينثرون في الجو بطاقاتٍ تحمل عناوين مكاتبهم واعدين بكلّ الضّمانات أنّهم سيدافعون عن حقوق أيّ طرفٍ يستعين بهم؛ ومرابون اقترحوا تقديم قروض فورية بعيدة الأجل ومريحة لتنفيذ عمليّة النّقل؛ ومهندسون يسوّقون لأيسر الطّرق لنقله باعتماد قوانين الفيزياء والمعايير البيئية المتعارف عليها؛ وجمعيات أكّدت أنّها تستطيع التكفّل برعاية الجسم في موضعه الجديد؛ حتّى أنّ فناناً اقترح بناء صرحٍ يخلّد للمجهود الدوليّ الجماعي في التّخلّص من مشكل الجسم الثّقيل، ووعد بأن يكون الصرح ممثّلاً لجميع الأطياف والحساسيات الفنيّة للبلدان المشاركة، وأن يعتمد مواد كلّها طبيعية مستقاة من المواقع الطّبيعية التي شهدت رحلة الكائن... وفي غمرة صياحهم ونقاشاتهم، لم يلاحظوا أنّ الطّفل الجميل كان قد اختفى، أخذته الأمواج التي حملته، وكانت بلا شك تعرف أيّ أرض يستحقها...

وبينما كانت الأمواج تأخذه، كان الموكب قد دنا من الشّاطئ، ولاحظ حارس المرمى أنّ المسافة والمنظور خدعاه، فالطّفل لم يكن عملاقاً، كان طفلاً صغيراً بحجم عاديّ، بل لعلّ جسمه أضأل قليلاً من جسم طفلٍ في سنّه، لكنّ حجمه كان عملاقاً قياساً إلى من كانوا يتنازعون جثّته. كانوا جميعهم أقزاماً، أقزاماً بحيث كان بإمكان المرء أن يدهسهم جميعاً بحذائه، وكان هوَ سيفعل ذلك لو قُيّض له المرور فوقهم، لكن الموكب اختار المرور بجانبهم وتركهم في نزاعاتهم يخوضون... وكان البساط قد امتدّ حتّى بلغ البارجة التي كانت راسية في البحر، وإلى البارجة صعد الموكب...

هناك كان الدمعُ نفسه يمنع من البكاء

الجحيم/ الأنشودة ٣٢

رغم أنّ مساحة البارجة لا يمكن إلا أن تكون محدودة في المكان إلا أنّ امتداد البساط لم يتوقّف، ولا سير الرَّكب توقّف. كانوا يتحرّكون وسط البارجة الحربيّة العملاقة، صاعدين نازلين، مارّين على المقصورات. ولو أنّهم لم يصعدوا إلى البارجة بأنفسهم، لاعتقد حارس المرمى أنّهم داخل مستشفى أو منتزه، كانت الممرات شديدة النّظافة، والمقصورات من خشب برّاقٍ، والمبنى كلّه من الدّاخل مطليّ بالأبيض، بياضاً من النّوع الذي يريح النّظرَ. وكان الممرّ الذي يقطع المبنى في منتصفه، واسعاً بحيث يستحيل أن يكون ممراً داخل باخرةٍ من المفترض أنّها شُيّدت لأغراض حربيّة. وعلى امتداد الممرّ، عن يمين وشمال، صفّ من النّباتات الخضراء من كلّ نوع، تبدو ضاربةٍ جذورها في الأرض، وليست موضوعةً فقط في تربةٍ داخل أصيص هائل الحجم. بالمحصّلة كان كلّ شيء يبعث على الرّاحة، وكأنّما من هندس البناء/ البارجة كان همّه الأوّل ضمان راحة الرّكاب، وكأنّما هي رحلة استشفائيّة يخوضها الرّكب بعد ما عاناه في طريقه.

وعلى خلاف المحطّات التي عبروها في طريقهم إلى أن ركبوا البارجة، كان الجو ضاجاً بأصوات الحياة؛ عصافير، وحشرات وديعة، وأشجار، وبحر؛ كلّها كانت تصوت في ضجيج ناعمٍ يبعث

في النّفس الشّعورَ بأنّها انبعثت من جديد وعادت إلى الحياة. حتّى أنّ الفرقة الموسيقيّة كفّت عن العزف واستعاد فريق الكشّافة، عازفي الطّبول، حريّة تحريك أذرعهم اليمنى. ومضى الجميع صامتين كأنّهم يسعون إلى جعل دواخلهم تنهل ما أمكن من الرّضا الذي يخيّم على الأجواء. كان يبدو أنّ الرّحلة قد بلغت نهايتها، حتّى أنّ العديد من أفراد الموكب بدؤوا في الانسحاب تدريجياً. كانت المقصورات تناديهم. واحداً واحداً، في البدء يتسلّل همس خافتٌ لا يسمعه سوى المعنيّ بالأمر، همسٌ خافتٌ باسمه الذي كان قد نسيه، همسٌ يتسلّل عبر الأذنين كأغنيةٍ عذبةٍ تعلَّمَها أوّل ما تعلّمَ النّطقَ، ويقتحم أنفه كرائحة الأرض بعد المطر في شتاءٍ من شتاءات الطفولة البعيدة، حين كان ما يزال حراً، ويتسلل عبر فمه، فيتلمّظه كحليب الأمّ الذي ربّما لم يذقه يوماً. وحين يلتفت نحو المقصورة، يراها ملوّنةً برسوماتٍ قديمة رسمها أو حلم بها في زمنٍ ما، فيتوقّف، ثمّ يخطو صوبَ باب المقصورة الذي ينفتح ثمّ ينغلق خلفه. وحدهما التّوأمان K وL، وأيضاً حارس المرمى، لم يكونوا مطمئنين إلى الجوّ. فما إن يدخل طفلٌ من الأطفال إلى المقصورة التي نادته حتّى يتبدّل لونها الأبيض وخشبّها البرّاق، وتتحوّل إلى ما يشبه الزنزانة، وتهبّ منها لفحةٌ حارّة. لكنّ باقي الأطفال في الرّكب، لم يكونوا يأبهون لذلك، ويترقّبون أن يأتي عليهم الدّور لدخول المقصورة المقيّضة لهم. أمّا ما كان يجري بداخل المقصورات، فشيءٌ آخر...

كانت أبواب المقصورات كلّها تؤدّي إلى ممرّ واحدٍ لا بد أن يسلكَه الدّاخلُ، قبل أن يصل إلى مقصورته الخاصّة، الممرّ بهوٌ طويلٌ واسعٌ، يمضي فيه الطّفل حالماً بين جميع الأماني التي

خطرت بباله يوماً ولم يبلغها: يركب درّجاتٍ من كلّ الأحجام والألوان، درّاجاتٍ بعدد الوعود التي تلقّاها في حياته ولم تتمّ؛ ويركض على قدميه متخلّصاً من الأطراف الصّناعية التي رُكّبت له بعد انفجارِ لغم؛ ويأكل الحلوى حتّى يغمى عليه دون حاجةٍ لأن يزور طبيب الأسنان أو يُحقن بالأنسولين؛ ويشعل أعواد الثقاب دون أن يحرق نفسه، بل يحرق بها الأوراش والمشاغل في الأزقّة المظلمة... يفعل ما يشاء دون أن يكون مجبراً على فعل شيء.... يكفي فقط أن يُحقنَ حقنةً واحدةٍ ما إن يدخل من باب المقصورة لكي تتحوّل حياتُه إلى كرنفالٍ من السّعادة الأبديّة، وإن كان يخافُ الحقن بإمكانه أن يطعّم في الفم، تطعيماً يحسّه حاراً لاذعاً في البداية ثمّ ما يلبث أن يغرق في النّشوة ويمضي في ممرّ السّعادة حيث لا ثِقل للوقت، ولا اعتبار للسّاعات والأيام...

خلف أبواب المقصورات على كرسيّ هزاز كان يجلسُ رجلٌ بزيّ ضابط ووزرة طبيب، يبدو طاعناً في السّن، بحيث ما عاد يستطيع الحركة، ووهن بصره حتّى صار بالكاد يستطيع تمييز الخيالات التي تتحرّك أمامه، دون أن تندّ عنه أيّ ردّة فعل تجاهها، وحده ظلّه على الجدار كان واضحاً؛ ظلّ هيئةٍ غريبةٍ بقبّعةٍ طويلةٍ تحمل منجلاً طويلاً، أشبه ما تكون بملاك الموت كما تُصوّرُه قصصُ الرّعب؛ كان العمّال المسؤولون عن تطعيم الأطفال ينادون الرّجل بالدّكتور جوزيف، ويكنّون له تقديراً خاصّاً لأنّه أوّل من ابتكر اللقاح الذي يستعملونَه، «لقاح الوعد». وكان الرّجل قد طوّر أثناء أحد أكثر الأزمنة حلكة في تاريخ القيامة الطّويلة التي يعيشها هذا الكوكب، لقاحاً اسماه «لقاح الوعود». الوعود تفتح باب كلّ شيء، وبعدها لستَ مضطراً لأن تنفّذ أيّ شيء؛ والوعد الذي كان

هو يطعّم به ضحاياه كلّ مرّة «وعد الحريّة»، استحمل لحظاتٍ ما سوف يحدث لك وبعدها تكون حراً، حراً إلى الأبد! لهذا كان جميع الممرّضين خلف أبواب المقصورات يكنّون له تقديراً خاصاً، بل ظلّ مرجعاً بالنّسبة إليهم ومثلاً أعلى يحاولون الوصول إليه.

كانوا يهمسون للأطفال بالوعد الجميل، فيبدو قصر الحلوى مضيئاً من بعيدٍ، شهياً وجميلاً، أرض سعادةٍ لا تنفد. لكنّ حارس المرمى كانَ يرى القفص والموقد والقِدْر والسّاحرة العجوز، لكنّه لم يكن يستطيع أن يصرخ أو يتوقّف عن المشي، كان يتعذّب فقط.

دخلَ الأطفال إلى المقصورات واحداً بعد آخر كحبات مسبحةٍ انفرط خيطُها، وكلّما دخل أحد الأطفال طُعّم وهُمس في أذنه بوعدٍ؛ كانت الوعود تنهال: قصور حلوى، ومراجيح، وألعاب، وقصص، وابتسامات، وأسرّةٌ دافئة، ومنازل لا يقطر سقفها، ومهنُ آباء غير شاقّة، ووقتٌ كافٍ للأمّهات، وأجسامٌ تشبه أجسام باقي الأطفال، وحيوانات صديقة، وحريّة في الكلام واللُّعب والتلصّص على حيوات الكبار، وفضول لا يُقمَع، وآلاتٌ تفكّك وأوانٍ تُكسر دون عِقاب. وكان الأطفال يمضون في حلمهم إلى الآخرِ، مؤمنين به حتّى نهايته؛ لكن حارس المرمى كان يرى عند طرف كلّ طريقٍ انكساراتٍ وفظائع وجوعاً وحرائق، وحروباً، مدناً تخرّب بأكملها، وشواهد ميلادٍ تُمحى تواريخُها، وحافلة تُحرق فتتفحّم الأجساد البريئة ويقيّد الدّم ضدّ مجهولٍ... رأى من الفظاعات ما لا حصر له، ولم يكن له من رجاء سوى أن ينتهي هذا الطّريق، كي لا تتحجّر الدّموع ويبلغ الدّرجة التي يحسب أنّ التوأمين قد بلغاها.

وانفرطت آخر حبات السّبحة، حتّى الأطفال الأربعة الذين كانوا يحملون هودج التوأمين، وضعوه أرضاً وانصرفوا إلى

المقصورات التي نادتهم. واضطرّ التوأمان إلى الوقوف على قدميهما، لكنّهما لم يسيرا خطوةً. كان يبدو أنّ الطّريق قد انتهت، حتّى أنّ حارس المرمى وصاحبه قد توقّفا لأوّل مرّة مذ التقيا في هذا العالم. أخرج التوأمان قدّاحةً وأضرما بها النّار في المعجم والدّفتر الكبير، ومع كلّ صفحةً تحترق كانت البارجة بمقصوراتها وممرّاتها تتلاشى وتمّحي، إلى أن أكلت النّار كلّ شيءٍ، صار كلّ شيءٍ رماداً، وصارت البناية التي كانوا فيها منذ قليل ذكرى بعيدة غائمة.

أحس حارس المرمى بصلابة الأرض تحت قدميه. نزل من رقبته القرد، وعضّه عضّةً خفيفة في كفّه، وأخذ يشرب عبرها ما يشبه الدّم، فتمّحي خطوط الكفّ، وتندثر ذكريات الرّحلة، ويستعيد الرّجل شيئاً ممّا يربطه بحياته السّابقة، حياته قبل أن يصطدم القطارُ بالسيّارة... انبعثت حوله ضوضاء الشّارع وضجيج البشر، فأيقن أنّه قد عاد إلى العالم المألوف الذي ولد فيه ونشأ. لكنّ المنطقة التي كان فيها كانت غريبةً، لم تطأها أرضه من قبل، ضجيج مدينةٍ شرقيّة نامية لا تشبه في شيء المدينة التي عاش فيها معظم حياته.

الفصل الثالث

2

أرض ناتاشا:

أنا من بيتي صنعتُ لنفسي مِشنقةً.

الجحيم/ الأنشودة ١٣

بلغا ملتقى طُرقٍ غاصاً بالبشر والسّيارات، الرّجال كلّهم عيونهم ضيقّة والسّيارات حمراء، تذكّر حارس المرمى أنّه رأى في حُلم قديم رجلاً جائعاً يقشّر سيّارة من هذه السّيارات الحمراء ويأكلها كالبرتقالة. همهمات الرّجال ذوي العيون الضيّقة ترتفع في الأجواء فتصير مزعجةً كطنين قفير دبابير، وأبواق السّيارات لا تكفّ عن الضّجيج. حثّ الرّجلان خطاهما ليبتعدا عن مفترق الطّرق الضّاجّ، كانت أعينهما مثبتةً على صفّ نخلٍ يلوح من شارع قريب. وعندما بلغا صفّ النخل انحرفا يميناً إلى زقاق ضيّق. عند مدخل الزّقاق حيّاهُما رجلٌ قائلاً: «مرحباً أنا عُمَر، وهذا الدّرب باسمي!»، ثمّ اختفى.

تخطّيا بنايتَين، ثمّ دخلا البناية الثالثة، بناية قديمة متينةَ البنيان ومهترئة الوجهَ. داخل البناية حاوية أزبال والمكان معتم، لا تتوضّح تفاصيله إلا بعد أن تألفه العينُ وتتخلّص من الوهج الذي

حملته معها من الخارج. وعندما ألِفت عينا حارس المرمى العتمةَ نظر إلى أعلى فبدا له السلّم مرتفعاً إلى خمسة طوابق أو ستّة، لكنّ عينه تعلّقت مباشرة بالطّابق الرّابع، الطّابق الذي كان يقصده. وبدآ الصّعود. كان الطّريق أشقّ من الطّريق الذي قطعاه في رحلتهما السّابقة، رغم أنّ الأمر لا يعدو كونه صعود درجات سلّم، قد يصعدها أيّ كان، وإن بشيء من الجهد، حتّى وإن اضطرّ إلى التوقّف عند كلّ طابق ليلتقط أنفاسَه، فلمَ كلّ هذا التّعب؟ لقد كان السير أشبه بالسّير في الزّمن. كانا يقصدان بيت السّاكن في الشقّة رقم ١٩ من الطّابق الرّابع، وساكن الطّابق الرّابع قضى عقدين ونيّف من الزّمان يصعد الطوابق الأربعة، فكان لزاماً عليهما أن يسلكا الطّريق التي سلكها هو طيلة مدّة إقامته في الشقّة ١٩. كانا يسيران في حياته، منذ أوّل يومٍ اكترى فيه الشقّة، مشيا على خيباته وانتصاراته ولحظات صفوه وكدره، واللّيالي التي صعد فيها ثملاً فاضطرّ إلى الجلوس على السلّم متردّداً بين إكمال درجاته حتّى شقّته في الطّابق الرّابع، أو المبيت في موضعه والصّباح رباح! ومشت رُكبُهما على نفس المسار الذي سارت عليه ركبتاه، مُذ كانتا فتيّتين، إلى أن كلّت أربطتُهما، وما عاد بإمكانهما أن تحملا في آنٍ جسد صاحبهما ومشترياته. لذا حين وصلا كانت أرواحُهما قد تغيّرت، كانت متعبةً.

كانت بباب الشقّة ستّة مواضع لأقفال المفاتيح، ليس حرصاً من صاحبها، وإنّما فقط لأنّه كان دائماً ما يضيع مفاتيح بيته، فيضطرّ إلى كسر الباب، وتغيير موقع قفل المفتاح. وكانت نقرةٌ واحدةٌ خفيفة على الباب كافيةً لينفتح البابُ وحدَه. الشقّة غرفةٌ واحدةٌ، في صدرها سريرٌ عليه شيخٌ يعتمر قبّعةً، ويرتدي منامةً،

متوسّداً وسادةً عاليةً، أشار إليهما بأن ينزاحا عن مجال بصره، فأمامه كان التلفاز مشغّلاً، يعرض لقطةً من فيلمٍ كلاسيكي تصوّر مركبةً فضائيّة تقترب من المريّخ، فتصيرُ حمراء حمرةً متدرّجة تضمّ كلّ لطائف اللّون الأحمر، «**كرنفالاً من الحمرة، كرنفالاً من الألوان الوامضة المتموجة الرجراجة الحمراء الصفراء، الحمراء السوداء، الحمراء الزرقاء. الحمرة غالبة مستقرة، والألوان الأخرى تشتعل وتخبو حولها باستمرار**»، بدا الشّيخ ووجهُه ينطبع بالحمرة مثل طفلٍ غمره الفرح، كانت عيناه تشعّان عاكستين الحمرة التي شَعّت من التلفاز، وغمرت الغرفة كأنّ غروباً أشرق بداخلها. قام الرّجل من سريره، وتوجّه إلى خزانةٍ معلّقة، تصفّح مجلّداً، ثمّ بدأ يدندن لحنَ أغنيّة قديمة تحكي عن غابةٍ وجنيَّة وطفلة ضائعةٍ ونارٍ تقترب وتبتعد وإخوةٍ أسوأ من نار الجنّ... ثمّ أقفل الكتاب. وكان لون الغرفة الأحمر قد بدأ يخبو فيخلّف لوناً قاتماً، مثلما يتحوّل الجمرُ المتوهّج إلى رماد. وبدا أنّ اللّونَ القاتم لم يخلُف اللّونَ الأحمرَ في الغرفة فقط، وإنّما أيضاً في عيني الرّجل، لقد صارتا رماديّتين كئيبتين، انطفأ وهجهُما، وبُدّل الفرحُ الطّفولي كآبةً شائخةً.

على التلفاز كانت المركبة قد أفلتت من مدار المرّيخ، وصار الفيلم الآنَ يعرض لقطةَ رجلٍ حبيس غرفة ضيّقةٍ، يتأمّل فيها سريراً ينامُ فوقه رجلٌ مسنٌّ، وحين يمعن النّظر في قسماتُ الرّجل يتبيّن أنّ الرّجلَ ليس سوى هو نفسه، وقد عبر الزّمان وتضاعفت سنّه بلايين المرّات قاطعةً التّاريخ الذي عبرته المادّة منذ وُلد هذا الكون من رحم السّواد، وحتّى صار مجرّد خيوط نورٍ تائهةً تعبر الفضاء لا تدري إلى أين. أطفأ الشيخ التلفاز والتفت إلى حارس المرمى ورفيقه قائلاً: «لا فائدةً، حتّى لو أعدت اللقطة ملايين المرّات،

ستنتهي دوماً نفس النّهاية. كانت العرب تقول إنّ الحُسنَ أحمر. وأنا أحبّ اللون الأحمر. الأحمر هو اللّحظات القليلة التي شعّت فيها حياتي. لكنّ الأحمر لا يدوم. يخبو ككلّ لونٍ، لا لون يظلّ في النّهاية سوى الرّماديّ. . .»

أشار إليهما بالجلوس فجلسا على أريكة تشغل مساحةً من الغرفة الضيّقة، وكانت أمامهما طاولةٌ عليها بضعةُ كتب، وقصاصات ورق، أراد حارس المرمى أن ينظر في الأوراق، لكنّ نظرة الشّيخ لم تشجّعه. أخرج الشّيخ من الدولاب قنينةَ نبيذ، وأحضر كأساً صغيرة، وكان من الواضح أنّه ليس في بيته سوى كأسٍ واحدةٍ، فتواطأ الرّجال بأعينهم على تدوير الكأس. تهجّى حارس المرمى الكتابة بالحروف اللاّتينية على القنينة *Médaillon*. قال الرّجل وقد لاحظ انشغال الحارس بالتّهجّي: «إنّها ماركة قديمة! لا أظنّ أنّهم ما يزالون ينتجونها. مذاقُها لا بأس به. لكن أهمّ ما فيها لون الزّجاجة. لونُها غامق، يعطيك الانطباع بأنّها مليئة أبداً. وهذا أهمّ ما ينبغي أن يميّز النّبيذ: أن لا ينتهي». صبَّ من القنينة في الكأس، فانتشرت الحمرة خفيفة في الغرفة، وأحسّ الشّيخ ببعض الرّاحة، وعاد لعينيه شبه بريق. وكان الحارس قد التفت صوب شبّاكٍ مغلقٍ يبدو كأنّ حياةً سريّةً تضجّ خلفه. فابتسم له الشّيخ، وقال: «ليس وراء الشّباك شيءٌ. لقد أُقفل منذ زمنٍ بعيدٍ. لا أذكر متّى أقفلته آخر مرّة. لعلّي لم أفتحه قطّ. ولن أفتحه. . .».

واصلوا الشّربَ، مداورين الكأس، وكلّما استلمها أحدهم عبّها في جوفه دفعةً واحدةً، فأحسّ بأنّها لا تنزل من فمه إلى حلقه فصدره ثمّ بطنه، كما ينزل النّبيذ عادة في الجسم، أي لطائفَ من

الحرارة، التي تبدأ لاذعةً ثمّ تنتشر دافئةً كأنّها عِناقٌ يحضنُنا من الدّاخل. قنينة النّبيذ التي يشربونها كانت تنتشر، بالمقابل، كلطائف من ألوانٍ. كأنّما هي بقعة صباغة حمراء قانية تلقى في ماءٍ صافٍ فتنتشر في صفائه متدرّجةً، كأنّها طعنةٌ أسالت دم الماء. أحصى الحارس الكؤوس الأولى ثمّ لم يعد يحصي، كم مرّةً دارت الكأس، وإن استقرّ في نفسه اليقين بأنّ سواد القنينة ليس خدعةً توهمُ بأنّ القنينة لا تنتهي، فالقنينة بالفعل كانت لانهائيّة.

وظلوا يشربون إلى أن وصل دور الشّيخ في إحدى دورات الكأس، فردّها، وقال كلاماً غامضاً: «اكتفيت من حمرتِها، وحان الآنَ وقت معانقة الحمرة». دسّ يده أسفل الطّاولة، وأخرج ورقةً كان يخفيها. ظنّ الحارس أنّ الورقة خريطةٌ، مرسومة بالأحمر، لكن حين حدّق فيها رأى منمنمةً قديمةً فيها أشكالٌ غريبة. كانت المنمنمة موضوعةً فوق الطّاولة، والشّيخ اختفى. الحارس ورفيق رحلته يفحصان المنمنمة، وقد صارت ضاجّة يتحرّك فيها رجالٌ معمّمون، وأطفالٌ بجلابيب وحيوانات وطيورٌ، وكان هناك الشّيخ وكانت امرأة...

لمَ يسحرك محيّايَ إلى هذا الحدّ
بحيثُ لا تنظر إلى الحديقةِ الغنّاءِ؟
الفردوس/ الأنشودة ٢٣

«المنمنمة:

صفحة كتاب. مجرّد صفحة. لكن كأنّها قطعة حياة. قطعةٌ ظاهرة من حياةٍ أكبر منها تمتدّ عن يمينها ويسارها وفوقها وتحتها. لا يحدّها إطارٌ. لا خطَّ يحيط بالمرسوم على الصفحة، ولا بياضَ بجوانبها ولا رقمَ ولا عنوان. مجرد صفحة مرسومة. والرّسم على طول الصفحة زاخرٌ بالوجوه والأشياء، غنيّ بالتفاصيل الدّقيقة التي يحتاج بعضُها إلى النّظر الثّاقب المتفحص ليبدوَ أوضح أو أجملَ أو أدلّ أو أنفذَ أثراً.

أوّل ما يبدو من الرّسم وجه أنثوي باسمٌ. أول ما يبدو لأنّه ربما مركز الجذب في الرسم رغم أنّه في الجانب الأيمن. مركز الجذب لأنّه وجه أنثويٌ ربُّما، أو لأنّه يأخذ على الصفحة مساحةً أكبرَ من أيّ وجه أو شيء آخر في الرّسم، أو لأنّ تفاصيله واضحة حيّة من النّظرة الأولى، وحتى بدون تفرُّسٍ أو تحديقٍ، أو لأنَّ في عينيه نظرةً غاويةً غوايةً عجيبة، لأنّ نظرةَ العينَين ليست مباشِرة بل مُواربة، فكأنّهما تنظُران عَرَضاً أو تنتظران عَرْضاً، وكأنهما واثقتان من قوّة جذبهما بحيث لا تحتاجان إلى رفع النظرة أو توسيعها أو تسديدها.

وعلى الجبين عصابة صفراءُ عليها خربشاتٌ دقيقة

سوداء كالنّمل بل كالذّرّ، لا تكاد تُرى إلا بالتمعّن. هل هي كتابةٌ فتحتاج إلى مِجْهر لقراءتها؟ أو هي لعِبٌ جماليّ بدرجات اللّون الأصفر في مساحة محدودة؟ أو هي ظنون المرأة/ هواجسها/ نواياها/ فخاخها/ مخاوفها... تطلّ سوداء من عصابتها الصّفراء كما لو من زجاج نافذةٍ شفّاف؟

ومن العصابة الصّفراء يخرج يهطل يتدفق شلالُ شعرها الأحمر القرمزي.. غير أنه لا يتدفق عمودياً كالشلاّل، بل يهطل متفرقا منتشرا كالمطر في يوم ريح، يحسّ الناظرُ أنّ في الرّسم، وراء الرّسم ريحاً رُخاءً تعبث بالشعر المسترسِل الغنيّ المخبَّل المخبِّل الجارح المجروح عبثاً لطيفاً، فترسله إلى اليمين، وقبل أن يستقرّ يبدو لها فتحاول إرساله إلى اليسار، فيسكُنُ متحركاً بينهما وفي اتجاهيهما معاً.

وتحت خُصُلات الشّعر الأحمر وبينها تتناثر الأشياء والكائنات الحية، كأنه دمها الذي به تحيا أو دمُها الذي منه تموت. جسد المرأة لا يحتل المساحة المناسبة لوجهها وشعرها. هل يمتد تحت الرسم أو أن المرأة تضائله لئلا تفتن به، أو تضائله لتفتن به؟ جسد شاحب في بذلة رقص وردية كأنها انعكاس غارب للَونِ الشّعرِ على البشرة. جسدٌ يتراجع لتتقدّم من حوله الأشياءُ والكائنات الأخرى: سبحة كهرمان في لون قريب من لون عصابة جبين المرأة. وسائدُ متدرجة في اللون من البنيّ البارد إلى الأحمر الساخن. قطّ (أو قطة؟) لا يبدو منه إلا وجهه الأسود ذو الغُرة البيضاء في هيئة المُجْهش بالموء، كأنه يختنق وسْط المنمنمة المكتظة، ويتوسل إلى الناظر أن يمد يده ويفتح الرّسم

ليحرّره. ثمار فاكهة بألوان مختلفة (حمراء صفراء خضراء) ملقاة على البساط البنيّ في عفويّة شبعى. وكؤوسٌ شفافةٌ بمحتويات حمراء وسوداء قائمةٌ على طاولات صغيرة أو مطروحة مُهَراقة على البساط. وآلة موسيقية مقلوبة لا يستطيع الناظر أن يميز إن كانت عوداً أو كمانا أو نوعا خاصا من أنواع أحدهِما غيرَ معروف إلا لدى الخاصّة، لونها أصفر شاحب، وعلى ظهرها -بطنُها إلى الأرض- يقفُ طائرٌ غريب له منقار ببغاءَ وعَرْفُ هدهدٍ وريش طاووس وساقا ديك تنشبان براثنهما في خشب الآلة الموسيقية كأنَّ الطائر يخشى السّقوط، أو كأنّه يتهيأ لأذان الفجر، أو كأنّه يهمّ بالطيران. وعلى البساط هنا وهناك أوراق دالية خضراءُ تتعاقب خضرتها وتسترسل حتى تذوب في خضرة عمامة شيخ في خلفية الرّسم على اليسار. شيخٌ لأنّ له عمامةً، ولأنّ له لحيةً وحاجبين (ملح وفلفل). رغم أن شفتيه المزمومتين كالمحتجتين على ما يجري تبدوان عاجزتين أمام عينيه الخضراوين الفاجرتين لأنهما تنظران إلى المرأة أمامه في وقاحة ساخرة تجمع بين اقتحام الشبِقِ واحتقار الملول. وفي أقصى اليسار من أعلى ضوءٌ صغير أصفرُ لا يكاد يضيء إلا نفسه. قل هو النور المرتدّ، النور المستنير لا النور المنير. النور النرجسي في أقصى أنانيته واعتزاله ولا مبالاته بالآخرين. هل هو نور مقلوب؟ هو (رون) إذن لا نور. كالثقب الأسود في فضاء المنمنمة ازدرد نفسه وأَفَل دون أثر إلا نقطة احتضار في الأفق الغربي.»

ظلّ الشّيخُ يتحرّك وسط المنمنمةِ، عابراً وسط شلالات الألوان المتدفّقة، غير مشدوه ولا مشدود إلى أيّ تفصيلٍ من تفاصيله، كأنّما كان يبحث عن شيءٍ آخر، عن وجهٍ عزيزٍ، عن ذكرى قديمة.. سار متّبعاً نوراً لم يكن يلحظه سواه، قاده في طريقه على التّوالي والدُه وفقيهُ الجامع، وشيخُ الطّريقة، وأصدقاؤُه، وغرابٌ جميل كانَ رآه في حلمٍ ثلجيّ قديمٍ، وكلّهم تساقطوا دون بلوغ نهاية رحلته. وفجأةً رآها. «**لم تكن طفلة ولم تكن فتاة. كانت امرأة مكتملة الخلْق ناضجة الأنوثة لا تلبَس إلا إزاراً أحمر رقيقاً شفافاً يختلط لونه حين يلتصق بالجسم بلون البشرة فلا تذكر أيَّهما لأيِّهما. ويُهَفْهِفُه أحيانا نسيم داخليّ تبثه حركاتها الراقصة فيفيض عن الجسم وينفصل عنه ليعود إليه. كأنه ليس ثوبا. كأنّه زَبَد الأنوثة الجياشة يمتد على ساحل جسمها ويَزْجُرُ تحت أشعة ذلك القمر الغلام**» **اقتربت منه وقالت له: «تعالَ معي»** فمشى وراءها، وأدخلَتهُ الحديقة.

كانت الحديقةُ تشعُّ حُمرةً، لكن لا شيء منها كان يظهر للنّاظرَين إلى المنمنمة من الخارج، فالظّاهر أنّ الحديقةَ كانت منطقةً حراماً، لا يدخلُها إلا من اختُّص بالنّظر، كانت أرضه وحده.

وكان حارس المرمى قد امتلأ بتفاصيل المنمنمة كلّها وعاد بصره شيئاً فشيئاً يعود إلى فضاء الغرفة، فلا يرى غير السّرير البارد والتلفاز والكنبة والطاولة، والكتب وقصاصات الأوراق. تذكّر النّظرة المحذّرة التي رماه بها الشّيخ حين عنّ له النّظر في الأوراق، وقد صار الآن يراها نظرةَ إغراء لا تحذير. على الطّاولة كانت قصاصةٌ متفرّدةٌ، وضعت بإهمالٍ، معزولة عن غيرها، كأنّما

تقصَّد واضعُها أن يبرزَها، أو يُخفيَها عبرَ الإمعان في إظهارها. أخذ الحارس القصاصة، كانت مقاطع مكتوبةً بقلم حبر جافّ أسود، وقد عنونها كاتبها باسم بدا للحارس شديد الألفة: «ناتاشا».

وبعدما قهرتْني بنورِ ابتسامةٍ قالتْ لي:
- دُرْ حولَ نفسكَ وأرهفِ السّمع،
فَما الفردوس في عينيَّ وحدهما.
الفردوس/ الأنشودة ١٨

ناتاشا

حياتي غيمةٌ:

يأتون كلّ مساءٍ. أراهم من وراء خصاص النّافذة، ربّانهم، ربّانُ القارب الطّويل، على هيئةِ غرابٍ، أو كذلك يخيّل إليّ، إذ لا أرى منه سوى رسمِ رجلٍ تحت عباءةٍ سوداء. كلّ يومٍ يلقون المرساة على بعدِ مسافةٍ من الشّاطئ، يخرج النوّاتيّ صندوقاً، ومن الصّندوق يخرجون كُتباً، يرصفون بالكتب مساحةً من الماء: يبلّطون البحرَ بالكتب؛ ثمّ يقيس ربّانهم بمنظارٍ طويلٍ المسافةَ المائية التي ما تزال تفصلهم عن البرّ.

سنواتٍ وهم يأتون. كلّ مساءٍ يأتون. فيما مضى كانوا بعيدين جداً، لم أكن أراهم، أو كنت أرى فقط نقطةً بعيدةً، لم أكن أعرف ما هيَ. أشبعتُ النّقطةَ تأويلاً: كنتُ أعرف أنّ النقطة - كما جاء في إحدى القصص الصينيّة التي قرأتُها قديماً- قد تسعفُنا في رسمِ أيّ شيء، أو ادّعاء رسم أيّ شيء، كلّ شيء يبدو من بعيدٍ نقطةً، مجرّد نقطة. وأنا كانت

نقطتي غراباً، وخبز شعير الأمّ، واللوح الذي كنت أكتب عليه بـ«الصمغ» في الكُتّاب، والفطور الثاني الذي كنّا نتناولَه في الحقل مع أبّي وجدّي وأعمامي وأبناء عمومتي، وأوّل صفعة انطبعت في صماخ أذني، وبرد أصباح الرّيف القارسة، ودفء القبلة الأولى... كانت النّقطة كلّ شيء: أحلامي وكوابيسي... وفيها زرتُ كلّ أصقاع الدنيا، ما عرفه البشر منها وما أنكروه، كان يكفي أن أحدّق فيها لأعبر من صقع إلى آخر؛ **فيها زرت الهندَ لأتعلّم الصّمتَ، ومدريد لأتعلّم الصّخبَ، وفنلندا كي أعقد صداقةً مع الثلج، والبرازيلَ لأعيش الحياة بالطّول والعرض**، وضريح سيدي أحمد زرّوق لأعيش على الكفاف؛ سبحت في بحور العالم السّبعة، وأنهار الفردوس الأربعين؛ صادقت عصفوراً وأطلقت النّار على غزالة، وراقبتُهم ينكّلون بذئب؛ وقادني عصفور اسمه «سعدون» إلى جبل قاف؛ وما كنتُ أرى تلك المناظر، «من فوق» أو «من وراء» أو «معَ»، مثلما كنتُ أعلمّ الطلبة حين كنت أدرّسهم تحليل النّصوص؛ كانت رؤيتي رؤيةً «في»، كنت أنا تلك المناظر، كأنّي «أرانيها». وفي النّقطة رأيتُها: رأيتُ ناتاشا.

هل كانت شخصيّة من شخصيات روائيّ روسي؟ هل كانت بطلة سلسلة قصيرة في سبعينيات القرن الماضي؟ هل كانت امرأة ابن جيراننا في القرية، الذي أرسله أبوه لدراسة الطبّ في أوروبا الشّرقية؟ هل كانت وهماً، خيالاً، طفلةً رُزقتُها في حلم مجوسيّ؟ لا أدري، لكنّها مذ تسرّبت إلى النّقطة، ما عُدت أرى سواها؛ صار كلّ شيء ناتاشا. في ما

قبل كنت أرى حياتي نُقطةً، مجرّد نقطةٍ تتحوّل وتتشكّل في كلّ الصّورَ، نقطةً هي جماعُ هذا الكون، والآنَ صارت حياتي اسماً، مجرّد اسمٍ: ناتاشا.

ظلّ الاسم يقترب، ويكبر، لكنّه على خلاف النّقطة، لم يكن يزداد وضوحاً، وإنّما يتلاشى ويتبدّد، كلّما ازداد دنواً ازداد ضبابيّةً، وشفّ عن هيئتهم، هيئة راكبي القارب. إلى أن تبدّد الاسم ولم يبقَ إلا القاربُ.

فيما مضى كانوا يلقون مرساتهم على بعد أميالٍ من الشّاطئ، لكن اليوم، وقد تبلّط البحر، أو يكادُ، بالكُتبِ، صاروا بعيدين بسنتمتراتٍ لا غير، وربّانُهم، الذي يوقظُ فيّ ذكرى خارون، قائد مركب الموتى في العالم السفليّ، صار حين يوجّه منظارُه نحوَ نافذتي يكادُ يصيبُ به عيني. منظارُ بعدسة واحدةٍ، تحدّق فيّ كعينٍ، تلامس جلدي وتنفذ إليّ، تفتّشني، هل ترى فيَّ ما لا أراه؟

اللّيلة يصل القارب. رأيت البحر مبلّطاً، والمرساة تلقَى في البر، ومن الزورق ينزل ملاّحان، ربّان السّفينة في مكانه، كمن ترك محرّك السيّارة مشغّلاً، ولابد أن يرجع معه أحد. زجاجة النّبيذ في الخزانة، والكأس واحدةٌ تكفي ثلاثةً، والكتب لمن يستطيع رؤيتَها. لا ينقصني سوى زيارة أخيرة لحديقتي، قبل أن تُطبق الحمرةُ على كلّ شيء.

ناتاشا! الآن أتذكّر... لم تكن حلماً ولا امرأة ولا بطلةً في رواية، كانت غيمةً، مثل حياتي هذه... حياتي غيمةٌ تبدّدُها الرّياح، ثمّ تلتئم مزقُها، في انتظار أن تبدّدها الرّياح؛ لا الغيمة ترتاح ولا الرّيح تستريح... فيا كلّ غيوم

الدّنيا أما آنَ أن ترتاحي... ها أنا ذا أمدّ يديَّ ضعي يدك بينهما، وسأغنّي لك **أبيات ليرمنتوف التي كنت أردّدها في الزمن البعيد**، كلّما بدّدتك الرّيحُ، **كلما افترقنا**:

«أيتها الغيوم الراحلات أبدا
من يطردكن؟
أبدا باردات
وأبدا حُرّات
ليس لكُنّ وطن
وليس لكنّ منفى»

. . . فأشارتْ عليَّ
بأنْ أنشرَ إلى الخارج
فيضَ ينبوعيَ الداخليّ.
الأنشودة: ٢٤

طوى حارس المرمى الورقة. وأعادها إلى مكانها في العلبة قرب السّرير. كان الشّيخ واقفاً عند الباب. استدار مودّعاً، وقال أنا ذاهبٌ في جولة، أتمنّى ألاّ أضطرّ لصعود البيت مرّة أخرى، سأنزل الآن، سأنزل الدّرجات كلّها، درجةً درجةً، مستنداً بكفّي إلى الحائط كي لا أسقط. عند الطّابق الثاني سأصادف الحاجّ الذي يسكن تحتي، ستكون بنت الجيران الصّغيرة نازلةً في السّلّم أيضاً، ستتجاوزني، فالطّفولة لابد أن تتجاوز الشيخوخة، وسيسألني الحاج: هل هي ابنتُك؟ وسأصمت، وأنا أطوي حسرتي. . . . عِم مساءً يا صديقي!

عِمي مساءً يا ناتاشا!

1

ألا ترون أنّنا لسنا بأكثرَ من ديدانٍ
خُلِقَتْ لصُنع الفراشةِ الملائكيّة
المطهر/الأنشودة ١٠

كازا بلانكا، ٣١/ ١٠/ ٢٠٤٦

اسمي الغربي بنعمرو. أسكن في درب عُمَر بالدّار البيضاء، منذ نُقلت إليها من الرّباط، نقلاً تأديبياً. لو كنتُ قد أُدّبت منذ عشرين سنةٍ خَلت، لما كُنت نُقلت إلى الدّار البيضاء. آنذاك كان الدّخول إلى الدّار البيضاء لا يتحقّق سوى بالواسطة، أمّا المعاقبون فكانوا يُرسَلون إلى جنوب المغرب والمناطق النائية. الآن صارت الدّار البيضاء جحيماً لا يدانيه أيّ جحيم. أتيت صفر اليدين، لا مالٌ ولا أهلٌ، فقط عمل. وليتني أتيتها أيضاً بلا عملٍ. على العموم هذه الحسرة انقضت ومضت وما عاد لها من معنى اليوم. لقد تقاعدت منذ فترةٍ وجيزة. عملياً كنتُ متقاعداً منذ زمن طويل. منذ عُيِّنتُ وأنا متقاعدٌ. كنت ملتزماً في مواعيد الدّخول والخروج، وكنت اشتغل في حدود ما يُطلب منّي، أنجز عملي كاملاً، في وقته. لكنّني كنت أفتقد لأهمّ ما ينبغي أن يميّزَ الموظّف: الطّموح. عيّنتُ منذ أكثر من ثلاثة عقودٍ في منصبٍ، وبقيت فيه إلى أن غادرته

متقاعداً. من سبقوني ومن لحقوني، كلّهم تجاوزوني. لا يوجد أبداً منحوس في الوظيفة، أيّ واحدٍ لا بد وأن يرتقي في نهاية المطاف، مهما طال انتظاره، إلا إذا كان رافضاً أن يبذل أي مجهودٍ في سبيل ذلك، وأحسب أنّني من القلة القليلة جداً التي انعدم فيها كلّ طموح لتسلّق السلّم الوظيفي. لكن، هل السلّم الوظيفي وحده الذي لم أتسلّقه؟ قضيت حياتي كلّها على السّلالم، لا أنزل ولا أصعد. لم أرتفع في أيّ سلّم، باستثناء سلّم هذه العمارة. سلّمها رفعني حتّى الدّور الرّابع. أنفاسي تتقطّع كلّما صعدت السّلم. كلّ مرّة أُقسم أنّني لن أغادر بيتي مرّةً أخرى، كي لا أضطرّ إلى صعود السّلالم. لكنّني أجدني صباح اليوم الموالي، أرتدي ملابسي وأدسّ قدميّ في حذائي وأنزل، لأتيه وسط الخلق. لا أحد يزورني تقريباً، أو لأكون صادقاً لا أحد يزورني مرّتين، أعزو الأمر إلى وعورة الصّعود حتّى الطّابق الرّابع، لكي لا أقول إن ضيق بيتي هو السّبب. بيت من غرفةٍ واحدةٍ ومطبخ. حين غادره ساكنه السّابق، شُحذت السّكاكين والعصيّ للحصول عليه. حتّى جحر الفأر صار بـ«الشّيء الفلاني» في هذه المدينة التي بلا قلب. حصلت على الشقّة بعدما نفحت السّمسار مقدار شهرين من راتبي. صدمتني في البداية صعوبة صعود السّلالم، لكنّي قلت إنّي لابدّ أن أعتاد. وسأعتاد كذلك ضيق المكان، الغرفة الوحيدة، السّرير البارد، والمطبخ الضيّق، والحمّام الذي يصعب التحرّك بداخله. وحتّى أكون منصفاً مع الشّقة، هي ليست حقاً بالضّيق الذي أصوّره، لأنّي أخفي جزءاً من الصّورة. هناك بهو تطلّ عليه نافذتي، هو من ملحقات الشقّة. قال لي أخي إنّه يمكن بسهولة أن يتحوّل إلى غرفةٍ واسعةٍ، إذ يكفي تسقيفُه بعد أن ننفح رجالَ السّلطة إكراميّة بسيطة، وتطوّع هو نفسه للقيام

بالمهمّة. وقد تحمّست في البداية إلى الأمر، لكن ما لبثُّ أن تخلّيت عن الفكرة مثلما تخلّيت عن كثيرٍ قبلها، لا أريد حقاً أن أضيف أيّ مساحةٍ إلى شقّتي، ولا إلى حياتي، لا أريد حتّى أن أفتح الشّرفة، أو أفتح جبهةً جديدة: لعلّ هذا شكلٌ من أشكال الإقامة التي أَلِفتُها: الإقامة في السلالم، لا أصعد، ولا أنزل. أخبرني السّمسار أنّ السّاكن السّابق، أقامَ هنا ما يفوق أربعين عاماً. أربعين عاماً ولم يُفكّر في أن يوسّع الشقّة، وأوسّعُها أنا في بضع سنين؟! لحسن حظّ الشقّة، روحُها لم تتغيّر. ساكنُها السّابق عوّضَه ساكنٌ لا يقلُّ عنه تردُّداً. قيل لي إنّ السّاكن السّابق كان كاتباً، وإنّه مثلي عاش وحيداً طيلةَ عمره. لم أحاول البحث عن كُتبه. قد تكون وسط كومة الكُتب التي تركها في خزانةٍ لصق المطبخ. حين هاتفتُ السمسارَ بخصوص الكتب، أسأله هل يرسل أحدهم ليحملها، سألني مستنكراً: أيّ كُتب؟ وأقسَم لي جهد أيمانه أنّ الشّقة حين استلمتها كانت فارغةً تماماً، وأنّه أشرف بنفسه على تنظيفها، ولم يكن فيها سوى كرسيّ وصرصار وبضع قناني فارغة. وعلى العموم قال إنّ أيّ شيء أجده في الغرفة يعتبر ملكاً لي، ومن حقّي الاحتفاظ به دون أن أشعر بتأنيب الضمير. نبرتُه الواثقة جعلتني أشكّ في أنّني وقعت ضحيّة وهمٍ بصريّ، وأنّني ما إن أنظر جهة المطبخ حتّى أجد المكتبة قد اختفت. لكنّ المكتبة كانت بالفعل هناك. مكتبةٌ أجزم أنّها على صغرها تحوي من الكتب ما لا تحويه الخزانة البلديّة. كتب من كلّ الأصناف تقريباً. ولم تكن الكتب الشّيء الوحيد الذي خلّفه لي سابقي، كانت ثمّة أيضاً علبةٌ بها قصاصات ورقٍ، وأيضاً قنينة نبيذ من نوع «ميدايون»، أخّرت شربَها إلى اليوم، وبوستر لممثّلة الأزمنة الخوالي رومي شنايدر.

علّقتُ الجميلة رومي شنايدر، ولم أجرؤ على قراءة القصاصات في العلبة، وأخّرت شربَ القنينة. أمّا الكتب فقد وفّرت لي تسلية كبيرة. لم أتعلّق يوماً بالقراءة، لذا لم أقرأ فعلياً من كلّ هذه الكتب سوى صفحاتٍ قليلة، لكنّني أنفق وقتاً طويلاً في تصفّحها، واللعب بها. جرّبت معها تقريباً كلّ اللُّعب. صارت تسليتي الوحيدة في هذه الشّقة، كنت أستفتح بها يومي، فأمدّ يدي عشوائياً وأنا مغلق العينين، وأرى أي عنوانٍ سيحكم بخت يومي، لم يسبق أن تشابه عنوانان، كلّ يومٍ استل كتاباً مختلفاً: «الشّمسُ تُشرق من جديد/ بينما أرقد محتضرةً/ حكاية بلا بداية ولا نهاية/ ميتتان لرجلٍ واحد/ بحثاً عن الزّمن الضائع/ اسمي أحمر/ الأحمر والأسود/ الآخر مثلي...» الكتب لا تتشابه أبداً، لكنّ أيامي تتشابه!

منذ شهرين حاولت حصر الكتب ووضعها في قائمة مفصّلة. بدأت بداية نشيطة، دوّنت حوالي مائتين وتسعين كتاباً، ثمّ فترت همّتي حين لاحظت أنّ الكتب في الخزانة لا يتقلّص حجمها. بينما مساحة غرفتي بدأت تتقلّص بسبب الكتب المائتين والتّسعين. حاولت إرجاع الكُتب إلى الخزانة لكنّني فشلت. يبدو أنّ اتّجاه هذه الخزنة واحدٌ، الكتب تخرج منها ولا تعود إليها. هل خدعني السمسار؟ «الكتب هنا كالأرانب في شقّة الصديقة الباريسية» كما يقول كتابٌ تصفّحتُه منذ أيام.

ليست الكتب فقط ما يثير الرّيبة في هذه الشقّة، منذ أيامٍ حلمتُ حلماً غريباً. وكنت قد توقّفت عن الحلم منذ زمن طويل. منذ الزّمن الذي كنت أزور فيه طبيباً نفسيا لاعتقادي أنّ أحلامي سُرقت، وأنّ ظلّي على الأرض صار باهتاً. فيما مضى كنت أحلم بشكلٍ دائمٍ.

لا بل، جرّبت مدّةً من الزّمن تدوين أحلامي، كنت آنذاك مغرماً بالمرأة الوحيدة التي أحببتها، أحببتها وفُرض عليّ أن أجلس في السلالم، لا أصعد ولا أنزل! هل كانت هي أوّل عهدي بالجلوس في منتصف السّلالم؟ المهم، منذ أيامٍ كنت أشاهدُ فيلماً باعني إيّاه أحدُ مروّجي الأفلام القديمة في الحيّ، فيلم كلاسيكي من نوعية الأفلام التي لم يعُد يشاهدها أحد: «أوديسة الفضاء». حين شغّلتُه بدأ مباشرة بلقطة مركبةٍ تقترب من المرّيخ، كانت المركبة متلألئة حمراءَ متدرّجةً تدرّجاً أحمرَ لانهائياً، غذّى عندي ذكرى قديمة استعصت على ذاكرتي. لم يكن المشهد يشبه في شيء صور المركبات التي صارت تظهر كلّ حين على نشرات الأخبار ممارسةً الدّعاية للرّحلات السياحية إلى الكوكب الأحمر. لقد كان المشهد حياً نابضاً بالحياة، (لمَ لا تستفيد شركات الإشهار من هذه اللّقطة، لتغذّي عند المشاهدين الرّغبة في زيارة المرّيخ؟)، ظلّ الجهاز يعرض نفس اللّقطة مكرّراً إيّاها إلى ما لا نهاية. هل خدعني البائع وباعني فيلماً معطوباً؟ أو لعلّه أحد وكلاء رحلات السّفر، وهذه طريقة جديدة للاستشهار؟ ضحكت من حمق الفكرة: إشهار رحلةٍ إلى المرّيخ في درب عُمر؟! ظلّ الجهاز يعرض اللّقطة، وأنا عاجز تماماً عن النّهوض من السرير لإيقافه، وانتهى بيَ المطاف إلى أن غفوت. غفوتُ، وعندما فتحت عينيّ بدا لي ضوء يشعّ من شقوق النافذة التي تطلّ على البهو. قمت من فراشي متردّداً، وحين نظرت خلل شقوق النّافذة، شهدت أعجب شيء رأته عيناي إلى اليوم. رأيت حديقةً عجيبةً، حديقةً حمراءَ، كلّ ما بها أحمر. حتّى ألوانُها حمراء، أصفرُها وأسودُها وأزرقها كلّها حمراء: نباتاتُها خضراءُ خضرةً حمراءَ. وفي الحديقة رجلٌ يرتدي زيّ لاعب كرة قدمٍ عليه

رقم ١ (هل هو حارس مرمى؟)، مع طفلة صغيرة جميلة، عرفتُ من أوّل نظرةٍ أنّها ابنتُه. كانت الطّفلة تحملُ مِرشّ ماءٍ تسقي به الحديقة، (هل البهو حديقة؟ ألم يسبق لي أن فتحته؟)، كانت الطّفلةُ تمسك المرشّ بيدٍ وبالأخرى تمسك يدَ والدها، تسقي نباتات تشبه الخسّ، ومن النّباتات تطلّ وجوه أطفالٍ لم أرَ طيلة حياتي أطفالاً في جمالهم. قالت الطّفلة لوالدها: «متى سيكبر إخوتي يا بابا؟»، «لا أدري حبيبتي! ربّما لن يكبروا أبداً! ربّما الأفضل لهم أن يظلّوا هكذا في عمر النّبات، لقد أوصانا بهم الشّيخ، وسنبقى نرعاهم كما أوصانا».

حُلمٌ كهذا، من المفروض أن يصيب المرء بطلقة فرحٍ، لكنّي لا أدري لمَ مزاجي معكّر هذا النّهار؟

غداً سأُحضر نجاراً ليصنعَ خزانةً للكُتب، المائة والتّسعين كتاباً التي تكدّست في غرفتي. أو قد أحضرُ حمّالاً يخلّصني منها، وسأحضر بنائين وحرفيّين، سأحضر فريقاً بأكمله، وسأرشو رجال السّلطة، سأعطيهم ما يكفيهم من المال وأكثر، المهم أن أقوم بالإصلاحات اللازمة في المطبخ والحمام والشّقة، والأهمّ أن أفتح شرفة البهو لأوسّع الشّقة. سأتزوّج، وستكون لي طفلةٌ جميلةٌ. سأصعد السلّم إلى آخره، لن أجلس بعد في المنتصف. غداً يومٌ آخر، غدا **سألقي بصخرتي في البحر**. لكن اليوم أنا متعبٌ، قنينةُ ميدايون تكاد تنتهي، وهذه القصص المكتوبة في القصاصات الموجودة في العلبة محزنةٌ جداً. لا أحتاج سوى أن استجمع قوايَ، أضع قوّتي كلّها في جسدي فأندفع خارج السّرير، أرتدي معطفي وشالي وأدسّ قدميّ في حذائي. خطوةٌ بسيطة تفصلني عن الباب، أخرجُ، أنزل السلالم، وفي نفسي يقينٌ أنّي لن أصعدها مرّة

أخرى، عند الطّابق الثاني سأصادف الحاجّ الذي يسكن تحت شقّتي، ستكون بنت الجيران الصّغيرة نازلةً في السّلّم أيضاً، ستتجاوزني، فالطّفولة لابد أن تتجاوز الشيخوخة، وسيسألني الحاج: هل هي ابنتُك؟ وسأصمت، وأنا أطوي حسرتي... سيقول لي إنّني أشبه والدي، هو أيضاً كانَ صموتاً (هل يظنّ أنّي ابن من كان يسكن هنا؟).

ها أنا قد قمتُ بالخطوة الأصعب، القيام من السّرير، ارتداء الملابس وانتعال الحذاء، وها أنا أفتح الباب، خطوات فقط، خطواتٌ على السلّم صاعداً أم نازلاً: سيّانٌ!

عِمْ مساءً أيّها السُلّم!

عِمي مساءً يا ناتاشا!

عِمي مساءً يا نِهال!

تنويه:

في الفصل الأخير اشتغال على قصّتي «لولّو» و«ناتاشا» للكاتب المغربي أحمد بوزفور، تواليّاً من المجموعتين القصصيّتين «قالت نملة» و«ققنُس». العتبات المأخوذة عن كوميديا دانتي (الجحيم/ المطهر/ الفردوس)، هي بترجمة الشاعر والمترجم العراقي كاظم جهاد. أمّا حكاية يونيتي فهي من سلسلة رسوم متحرّكة كانت تُعرض في تسعينات القرن الماضي بعنوان «حكايات من التراث العالمي».

هذا الكتاب

عندما خرج الطّفل، الذي سنمنحُه هنا مجازاً اسم م -أ، على عادته، من المدرسة وركض مسرعاً إلى بيته، رغم الحصاة التي كانت قد استقرت بين إصبعه ونعل البلاستيك الأزرق الذي كان يرتديه، لم تكن ثمّة سبيل لتوقيفه، كان هدفُه محدّداً، ينبغي أن يتغلّب على كلّ الصّعاب، ليبلغ المنزل قبل أن تبدأ الرّسوم المتحرّكة الخاصة بالفترة الصباحية. كانوا يعرضون آنذاك رسوماً متحرّكة تسمّى «حكايات من التراث العالمي». كان الطفل ما يزال يتلمّظ بحلاوة الحلقة الماضية، وكانت الحلقة الماضية حكايةً من التراث الألماني عن فلاّح يملك خاتماً سحرياً سيحقّق له أمنية واحدة. . .

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922605128

9 789922 605128